د.موسى رحوم عباس

Twitter: @alqareah
15.12.2014

بيلان

بيسان

د. موسى رحوم عباس

بـــيلان

رواية

Twitter: @alqareah

بـــيلان

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

• اسـم الكتاب: بـيلان (رواية)
• تـــأليـــف: د. موسى رحوم عباس
• الطبعة الأولى: آذار (مارس) 2011م
• جميع الحقوق محفوظة © بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
• رقـم الإيـداع: ISBN: 978 - 9953 - 468 - 59 - 4

• لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء أكانت «الكترونية» أم «ميكانيكية»، أم بالتصوير، أم بالتسجيل أم خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
E-mail: info@bissan-bookshop.com
Website: www.bissan-bookshop.com

Twitter: @alqareah

الإهداء

إلى أهلي الذين لن يتمكّنوا

من قراءة هذه الرواية

لأنهم أميُّون، أحبُّكم.

د. موسى رحوم عباس

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

«كم تجولتُ وسافرتُ وسحتُ في (ساوثهيل) قريتي الصغيرة!»

هنري دافيد ثورو

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تنويه . .

إن الحقيقة الوحيدة في هذه الرِّواية هي «كَسْرة مُرَيْبِط» أما شخوصها وأحداثها فهي من خيال الكاتب المريض بحبِّ ذلك اللَّامكان، وكل موافقة بينها وبين أشخاص حقيقيين هي من قبيل التَّشابه بالأسماء لا غير.

الكاتب

Twitter: @alqareah

الكتاب الأول

الـزَّهـــاب

«ليس من حقِّ الإنسان أن ينظرَ إلى الآخر من أعلى إلى أسفل،
إلا إذا كانَ يساعدُه على النهوضِ»

غابرييل غارسيا ماركيز

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الكلّ يناديه الحاج جاسم، وهو مصرٌ على هذا اللقب رغم أنّه ومن مصادر شبه مؤكدة لم يؤدّ الركن الخامس من أركان دينه، بل يذكر البعضُ أنه تغيّب عن القريةِ مدّةً من الزمن، ثمّ عاد حاجاً مرتدياً البياض، ووجهه يتهلّل نوراً، وقد أطال لحيته، إلا أنّه يهذبها قليلاً لتصبح خطّاً أو ما يشبه الخط، وهذه المرّة استنكف عن لبس العقال، ولم يعد يضعه كبقية رجال العشيرة، واكتفى بالجمدانة[1]، ووضع تحتها طاقية بيضاء يسحبها للأمام قليلا لتخفي تلك البثورَ التي تملأ جبهته، ويضيف بعض العارفين أنّه التحق بمجموعة من الحجاج بحملة يقودها أحد المهربين، وقد كاد الحاج يهلك ورفاقه عبر الطريق الصحراوي، تحت لهيب حرارة شمس الصحراء ومع إصرار المهرِّب وتأكيده عليهم بالبقاء تحت السقف الخشبي الذي يقسم الشاحنة إلى قسمين سفلي وعلوي، وقد كدسهم كأكياس

(1) الجمدانة: غطاء الرأس للرجل وهو ما يسمى ب (الشماغ)

Twitter: @alqareah

القمح ورمى لهم بعض التمر وقليلاً من الماء، ومع مرور الوقت واشتداد الظمأ، أخذ الرجال يصرخون، ويشتمون، قالوا له وهم يضربون الزجاج الخلفي: اقتلنا بمسدسك هذا، أو اتركنا هاهنا. . . . . الموت في هذه الصحراء أهون مما نحن فيه، الذئاب أرحم من هذا القيظ، لم نعد نريد الحجّ! لا نريد الموت بهذه الطريقة! فرماهم كالأغنام في مفازة لا يعرفون لها بداية من نهاية، وسط بحرٍ من الرمال، والملح يغطي أفواههم، ولولا شرطة «طريف»[1]، لما خرج منهم من يحدّث بخبرهم! ومن ذلك اليوم حمل هذا الرجل لقب (حاج)، وأضاف إليه بعضُ الأشقياءِ كلمة أخرى ليصبح (حاج طريف) وهو لا يخفي امتعاضَهُ من هذه الإضافةِ، وكثيراً ما انتهرَ أولئك الأشقياء، وعيّرهم بأمّهاتهم، وأضاف إلى ذلك عبارة (هداكم الله) وهي عبارةٌ جديدةٌ دخلت في التداول بعد عودته من رحلة الحج تلك!

«نجمة» كانت زهرة برية نبتت على شاطئ الفرات، فارتوت من مائه، واختزنت وهج شموسه، حتى غدت حبة قمحٍ في موسم الحصاد، ولطول جدائلها كان شباب القرية يشبهون تلك الجدائل بعقال النـاقَة، رغم أن معظمهم لم يرَ الناقة، وقريتهم لا تعرف الإبلَ، إلا في موسم العنب والتين، حيث يمر بها الباعة المتجولون، ومعظمهم من قرى حلبَ، ومن قرية السفيرة بالذات، حتى إنهم يطلقون على كل بائع عنبٍ أو تينٍ لقبَ (سفراني) ولو

(١) مدينة في شمال المملكة العربية السعودية.

Twitter: @alqareah

كان من عينتاب أو القدس، أما ابن المختار فكان يضيف إلى أوصاف نجمة، إنها غزالٌ شارد لولا أنها بنت (حاج طريف)..... ويستدرك معزيّاً نفسه، ولو «الورد يخلّف الشوك، والشوك يخلّف الورد»

في تلك الليلة لم ينم أحدٌ من أهل البيت، فقد خرج الخطّابةُ في وقت متأخر، واستمرت المفاوضات والمساوماتُ إلى الهزيع الأخير من الليل، وهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها المختار ووجوه العشيرة بيت حاج (طريف)، وهذه المرة أيضاً الأولى التي يناديه الجميع باسم الحاج جاسم دون إضافاتٍ، وهذه وحدها تكفي للفخر مدة سنة كاملة!

بينما جلس ابن المختار إلى يمين والده وهو يفرك أصابعه، وقد ظهرت عليه أماراتُ نفاد الصبرِ غير مرةٍ، ولكن والده يضغط على ركبته مذكّراً إيّاه بالأصول..... وعند الوصول إلى عدِّ المَهرِ رفع الحاج جاسم جمدانته إلى الخلفِ بحركة سريعةٍ، وعيناه تبرقان، ونظراً لوجود نقود ورقية من فئات الخمسين والمئة، فقد كان المَهر كبيراً، فوضعه الحاج في كيسٍ أبيضَ، ربما كان للسكر أو الرز، «سمّعونا الفاتحة على نية التوفيق، يا إخوان» هذه العبارة الأخيرة للشيخ مصطفى إمام جامع القرية، قالها بصوته الرخيم وبنغمة أقرب للتجويد.

مع شروق الشمس كان الحاج جاسم ونجمة ووالدتها هم أول الركّاب في (البوسطة) وهي السيارة الوحيدة التي تنطلق إلى حلب،

Twitter: @alqareah

وإلى يمينه يتكوّر (حسينوه) وهو شر لابد منه، فهو الوحيد الذي يعرف طرقات حلب ومطاعمها، وتجهيز البنت للزواج وشراء الثياب أو الأقمشة ووجوه المفارش والوسائد وهذا كلّه يسمونه بـ«الزّهاب»، لابد من خبير بمحلات المدينة وهي السوق المسقوفة المجاورة للقلعة، وربما سميت بحميدية حلب كما للشام حميديتها، وحسين أو حسينوه كما ينادونه، كان قد أدى الخدمة العسكرية في حلب ويعرف شعابها، حتى إنه يجيد اللهجة الحلبية وكأنه من «فسط» حلب كما يقول أبناؤها، صحيح أن للحاج ابناً يدرس في جامعة حلب ولكنه لم يشأ إشغاله عن دراسته، أو ربما كان لهذا الابن موقف آخر من هذا الزواج! ورغم أن المسافة لا تزيد عن المئة والثلاثين كيلاً «كيلومتراً»، لم يصلوا إلا وصلاة العصر قد اقتربت، فطلب الحاج من الدليل أن يصطحبه إلى جامع (نبي الله زكريا) وهو الجامع الأموي بحلب، فتمتم حسينوه بعدة كلمات غير مفهومة، لكن الحاج فهم أن الجماعة متعبون والجامع بعيد، فتقبل الأمر، وقال: نصلّي في (الأوتيل)، وبعد الصلاة نام كالقتيل على سريره، وهي المرة الأولى التي ينام فيها على سريرٍ من حديد! بعد أن ازدرد كومة من الكباب الحلبي من مطعم (الصقعاني) وهو كما أخبره حسينوه من أفضل مطاعم حلب!

بعد مغيب الشمس غمز حسينوه بعينه اليسرى الحاج جاسم - فلم يفهم عليه من المرة الأولى، فأعاد الكرّة، وانصرف إلى الصالون المتهالك في (الأوتيل)، فتبعه الحاج دون أن يسأل شيئاً، وبعد دقائق كان الاثنان على الرصيف، الإنارة الصفراء في الشارع

Twitter: @alqareah

تعطي لـ (باب النصر) وهو الحي الذي يتربع فندقهم وسطه جمالاً ورهبةً، فأشار حسينوه بيده لسيارة الأجرة، وركب في المقعد الأول، بينما تربّع الحاج في المقعد الخلفي، وهمس للسائق «باب الفرج» لو سمحت! دقائق كان صوت باب السيارة يصطكُّ بقوةٍ، وصوت السائق يرتفع وهو يشتم «هذه سيارة يا بهيمة! وليست حمارتك في الضيعة» رفع الحاج جاسم (الباكورة) وهي عادة اتخذها بعد أدائه للحج في طريف، فقد أصبح يحمل عصاً معقوفةً لا تفارقه، رغم أنه لا يتكئُ عليها، وليس عنده غنم يهش بها عليها، فدفعه حسينوه بلطف، امشِ يا رجل، زعران حلب كثر!! أمسكه بلطف من كتفه، وساقه أمامه شاقاً الجموع التي احتشدت بسرعة البرق حولهما، تجاوزا الساعة الأثرية في ساحة (باب الفرج) وسط المدينة، ودلفا إلى زقاق صغير، يتجه شرقاً، رُصفت أرضه بالحجارة البازلتية السوداء، وعلى جانبيه محلات ذات سقوف واطئة تبيع الدخان وتوابعه، والسبحات الرخيصة، وكلما أراد الحاج جاسم التوقف للفرجة، لكزه حسينوه وهو يستحثُّه على المسير، حتى بلغا بوابة قديمةً، يقف أمامها شرطيٌ ضخم البطن، فلما رآه الحاج فزع فزعاً شديداً وربما فكر في الهرب، رغم أنه لم يفعل ما يوجب ذلك، فتقدم حسينوه من الشرطي، وهمس في أذنه، ثم وَّضع في يده شيئاً، وهو يبدو كمن يسلِّم عليه، فضحك ذلك الشيء الضخم ومسح شاربيه الكثَّين، وهو يقول بصوت ممطوط:

أهليـــــن حجِّـــي، تفضّل!!

Twitter: @alqareah

تنفس الاثنان الصعداء، وولجا شارعاً ضيقاً ولكنه طويل، على جانبيه صالونات، ومداخل كثيرة، هدوء مطبق لا يقطعه إلا وقع أقدام مسرعة داخلة وخارجة، وعيون لا تبارح النظر إلى أسفل، سجائر مشتعلة، ورائحة نفاذة أشبه ما تكون برائحة اليانسون!

شخصت عينا الحاج جاسم فجأةً، تجمدت الكلماتُ على شفتيه، وتشبثت كفاه بثياب حسين كطفل ضُبطَ يسرق البيضَ من قنِّ الجيران، وصرخ كثور:

حسينوه، انظر، هل ترى ما أراه؟ إنها عارية، عارية تماما !!

كالقطن الأبيض جسدها، كالقطن، كالقط.....، غاب الصوت من حنجرته، شعر بعطش شديد، جفاف يشبه الظمأ في صحراء (الجرنية) القرية القريبة من قريته..... تلك القرية التي تموت من الظمأ وهي تنام في حضن الفرات، نظر إليه رفيق السفر والخبير في مسالك حلب، وأزقتها، وتمتم: اسكت يا حاج فنحن في (بحسيته)!! وما هذه البحسيته التي تقول؟ لن أخطو خطوة واحدة حتى تخبرني بقصتها من طق طق للسلام عليكم! فاقترب منه أكثر، وهمس في أذنه، هذا مكان للمتعة يا حجي، وهؤلاء النسوةُ جاهزاتٌ لكل ما تريد! بس بفلوسك!! وفرك إصبعيه السبابة والإبهام بحركة دائرية أمام عينيه، جأر الحاج بصوت أعلى من سابقه، يعني (سوق القحاب) ولم يكمل عبارته، إذ وضع حسينوه كفَّه على فمه، وقال بلهجة حازمة:

إن كنت لا ترغبُ فلك هذا، أما أنا فلي شأنٌ آخر، انتظرني في

Twitter: @alqareah

هذه الزاوية، وسأوافيك في الحال، بضع دقائق، دقائق، ولم ينتظر جوابه، غاب صوته وهو يجتاز الزقاق الصغير، ولم يعد يظهر منه إلا طرف ثوبه الطويل الذي يكنس تراب الشارع كنساً!

كان العالمُ ينهارُ أمام عيني الحاج، فتبدو له الأرضُ غير الأرضِ، والنّاس غير النّاس، تختلط في أنفه رائحة الجنس والخمر والتبغ، فتغيب الأصواتُ، والنّاس، وطريفُ، والزّهاب، وتشخص عيناه إلى زقاق آخر يقابل زقاق حسينوه ولكن في الجهة الثانية، فيبيضّ عالمه كالقطن الأبيض، نهرٌ من اللذة، وفضاء من جسدٍ ينطلق كمُهرٍ لم يروّض بعدُ! ثم علا الهياج، وساد المرجُ والهرجُ، رجال بشوارب معقوفة، سكاكين تلمعُ، الأيدي تتشابكُ، صحيح أنّه لا يفهم معظم ما يدور على ألسنتهم من سباب وشتائم وتهديد، لكنه لا يمكن أن يكون نكرةً، متفرجاً، لا يمكن ذلك ـ هداهم الله ـ العبارة الأثيرة قالها، وألقى بنفسه في المعمعة، فسقطت عباءته الجديدة على أرض الزقاق القذرة، وأصبحت عصاه المعقوفة والتي يسميها (الباكورة) سيدة الموقف، يبعد هذا، ويخلص ثياب هذا، ليعلوَ الصُّراخ من جديد، العرق ينزّ من مسامات جلده كمطر الخريف، وفي لحظة هدأ كل شيء! لم يعد يسمع شيئاً، الهدوء يخيم على المكان، والزقاق صمتٌ مطبقٌ، لا يقطعه إلا صرير الأبواب التي تغلق وتفتح من جديد في حركة لا تعرف الانقطاع!

حسينوه يخرج مسرعاً، يداه خلف ظهره، يمشي بخفة لا مثيل لها، ربما كان يصفِّر، هيا، هيا يا حجي، صوت مكابح السيارة، يستقر حسينوه إلى جانب السائق كالعادة!

Twitter: @alqareah

على مدخل القرية الشرقي، نجمة وأمها تتأخران قليلاً، والحاج يتكئ على عصاه هذه المرة، الظلام يهبط على قريته (الكسرة)، تختلط الأشياء في تلك الأسوار الطينية، أصوات الكلاب والأغنام، وهي الوحيدة التي تكسر رتابة الصمت، والحاج يتحسّس جيبه الذي اخترقته السكاكين في فم الزُّقاق، ولم يتركوا له سوى الكيس الأبيض أبيضَ خالياً من كل شيء!

نجمة تعود حورية بحر، أو عروس نهر، فمهرها والزّهاب استقرا بعيداً في ذلك المكان البعيد، ولم تعد إلا بقليل من المَحْلبِ، وصندوق كبير وهو صندوق العروس، ولكنه خالٍ، ومع ذلك فهو مقفل بإحكام، ومفتاحه مربوط بحزام الوالدة، يصدر رنيناً كلما تحركت، وظلّ حسينوه يردّد: «زعران حلب» اسألني، اسألني عنهم . . . . . زعرا. . . . .

أما حاج طريف فهو منشغل بما سيخبر به العشيرة عن الدروس العظيمة التي سمعها من مشايخ حلب في «جامع نبي الله زكريا»

Twitter: @alqareah

1

صندوق العروس

ها أنت ذا يا حسينوه تعود من حلب وكل دورك أن تكون رفيقاً إجبارياً للسفر ولولا أنك تعرف حلب كراحة كفك لما اهتمَّ لك أحد حتى نجمة!

أنت اليتيم الذي يعيش إلى جوارهم، وكل تلك السنين التي مضت لم تشعر باليتم إلا هذا اليوم، كنت تحمل صُرَّة الطحين وتذهب إلى الجيران ليخبزوا لكم الخبز، وكم كنت تتمنى أن تعيش في حلب، على الأقل لن تضطر إلى كل هذا الذل اليومي، فهنالك في المدن تقف أمام الفرن لحظات فتحصل على خبزك، أما هنا في هذه القرية فلا شيء من هذا، فكل بيت يخبز لنفسه، والنساء هنَّ من يُشعلن النار ويعجنَّ العجين وتخرج الأرغفة من تحت أيديهن أرقّ من ورق الشّام، وكلما أُسعرت النيران تحت الصاج ازداد

Twitter: @alqareah

الرغيف جمالاً، وقد احتقنت الوجوه بالحرارة حتى تصبح كالرغيف تشهيّا.

يخرج حسينوه علبة الدخان من جيبه ويضع قليلاً من الدخان التركي المهرب في ورقة رقيقة من ورق الشام، ينفث دخانه إلى أعلى، فيبتعد الدخان دوائر لا تنتهي، يتأخر قليلاً مصغياً إلى هواجسه وكأنها كوكب قد انفلت من تلك الدوائر التي تبتعد.. تبتعد..

نعم أنت حملت يتمك وفقرك على عاتقيك، وهاأنت ذا تجرجر قدميك وسط أوحال هذه القرية، نعم الحاج جاسم قدّم لك الكثير، فقد كنت رفيق ابنه صالح بل المهندس صالح ولكنك تركت المدرسة وقررت عدم العودة إليها ثانية منذ ذلك اليوم الذي ضربك فيه المدرّس فلقةً أمام الطابور الصباحي لأنك لم تلتزم بدورك ولم تحضر الطعام له في الموعد المحدد، وعندما سألك عن السبب لم تقل له الحقيقة، كنت تريد أن تصرخ في وجهه، وتلعن يتمك وفقرك أمام الجميع، لكن صالحاً تبرع بهذه المعلومة همساً في أذنه ففهم الجميع ما قاله ولكن (المقرود مقرود) فقد طارت الطُّيور بأرزاقها واللي ضرب ضرب....، صحيح أن المعلم تنازل كثيراً فعقدت الدهشة لسانه وسقطت العصا من يده، ولكنك تركت حذاءك البلاستيكي، وهو في الأصل مثل قلته، فقد كانت الحصى والأتربة تمر منه إلى قدميك بدون إذن ولا دستور، نعم تركته وهربت وكانت هذه آخر مرة تدخل فيها المدرسة، وهذا صالح سيتخرج من كلية الهندسة قريباً ومعه الأساتذة، ونجمة كبرتَ

Twitter: @alqareah

معها، أحببتَها وهي أيضاً خفق قلبها لك ألم تقرصها ذات مساء في قبور العسكر شرق القرية، عندها نفرت كمُهرة لم تروَّض بعد، هربتْ، ركضتَ خلفها، هربتْ، وهددتك بالحاج، فرجعت من طريق آخر، والانتصار يملأ جوانحك، تلك كانت المرة الأولى التي تلامس أصابعك جسد امرأة، نعم لقد عرفت ذلك الخَدَرَ اللذيذ، شعور لم تحصل عليه بعد ذلك طوال عمرك رغم أنك قد عرفت عشرات النساء ولولا أن الكذب خيبة لقلت المئات، انظر إليها لقد تغيرت كثيراً، ربما لم تعد تعني لها شيئاً، صحيح أن صندوق العروس فارغ إلا من قليل من المَحْلبِ والخُضَيرا، ولكنه يظل صندوقاً للعروس وأنت يا حسينوه لم تحصل حتى على صندوق فارغ.

والأساتذة أصبحوا أساتذة يخرجون أيديهم من شبابيك سيارات الحكومة، وغداً يصبح لهم شأن في نظام الحلقات والمكاتب المستديرة، وأنت تعرف أنهم كانوا يحشون جيوبهم بالخبز المسروق، ليطعموه لجحاش القرية ليتمكنوا من ممارسة رجولتهم ويجربوا قدراتهم الذكورية على الحمير أولاً، صحيح أن كثيراً منهم ذكورٌ لا أكثر حتى في (أمِّ البيش)[1] كنت تجعلهم يلهثون كالكلاب خلفك، ولكن من يقيم وزناً لما تقول نحن ولد اليوم، تستطيع أن تلوك مرارتك كما تشاء، لكن الفرات سيظل يهدر ويتجدد في كل ثانية، احمل موتك كما تشاء، وغداً صباحٌ آخر.

---

(١) لعبة شعبية تشبه (الغولف) لكنها جماعية يلعبها الشباب بالعصي والكرة المصنوعة من الخرق أو الجلد.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

خواجة موريس

«يا إلهي
لو كان مُقدَّراً لي أن أعيش وقتاً أطول،
لما تركت يوماً واحداً يمرُّ دون أن أقول للنَّاس: إنَّني أحبُّهم»

غابرييل غارسيا ماركيز

في صباحات الكسرة عادةً تبدأ الحركة مبكرة، فتختلط أصوات الرعاة بثغاء الأغنام ونباح الكلاب، لكنها تظل أقرب إلى السكون اللزج تزيده الرطوبة غير المتوقعة هذا اليوم صمتاً... وممر (بَيْلان) الذي يفصل القرية إلى حيَّين شمالي وقبلي مزدحم بالفلاحين والورّادات[1] المتجهات للنهر لجلب المياه للبيوت، وإن لم تكن المياه حقيقية دائماً، إذ كثيراً ما تكون ذريعة للخروج ولترتيبات مسبقة تتفتق عنها أذهان من دهمهم العشق على حين غرّة، بيلان هذا الصباح أشبه بسوق الجمعة في حلب كما يردد

(1) الورّادات: النساء اللواتي يجلبن الماء من النهر.

Twitter: @alqareah

حسينوه دائماً، الوحيد الذي خالف هذه القاعدة حاج طريف بقي مَزمّلا بلحافه رافضاً الاستيقاظ وكلما أيقظه أحد من أهل بيته، صرخ:

ـ أنا مريض، لا أريد الخروج افهموها، أف! ويشد إليه اللحاف ثانية، ولكن ما حصل هو ما دفعه للقيام مستعجلاً، ليندفع مع الجموع المتجهة شرقاً نحو مصدر الصوت، إنه أشبه بقصف الرعد، صحيح أنه بعيد، ولكن جدران البيوت ترتجّ له. تداخلت أصوات الرجال بالنساء والأطفال مستعلمة عن هذا الصوت. الوحيد الذي عاد مشمراً عن ساقيه، يركض أسرع من السلوقي حسينوه، وقد انقلب على ظهره من الضحك، وأخذ يمرغ يديه ورجليه بالتراب فقال له حاج طريف:

ـ ما وراءك يا طير شَلْوة [1] طول عمرك غراب بينٍ هات ما عندك.

فنهض وهو يضرب كفه بالأخرى، ليقول:

ـ والله يا جماعة ظننت أن الحرب قامت مرة أخرى وعدت إلى أيام العسكرية، فقاطعه الحاج طريف:

ـ أبو الطقعات، يفكر حاله (رومل)، اخلص واقطع الهرج وأعلمنا بالخبر، فتمالك نفسه واستوعب الصدمة - أبو الطقعات - أبو الطقعات! ما علينا كل ما في الأمر أن حاج عكلة شغّل الطاحونة الجديدة على الطريق العام بين الكسرة و مربيط وهذا صوت

(1) طير شَلْوة: عبارة يقصد بها من يجلب الشر والأخبار السيئة لأهله.

Twitter: @alqareah

المحرك الجديد، وسلامات يا إخوان، سلامتكم، فقفلت الجموع راجعة إلى البيوت، بينما تابع الحاج وحسينوه وعدد من الرجال والنساء لرؤية هذه الطاحونة.

استقبلهم الحاج عكلة على مدخلها مرحباً، ولكنه لم يخفِ هَلَعه من أن يصيب أحدهم طاحونته بالعين، فحمل دلواً من الماء ورشقه عليهم مدَّعياً أنه أراد ترطيب المدخل حتى لا يثار الغبار ويدخل إلى غرفة المحرك، وكرر الترحيب، هذه المرة مطمئناً لقيامه بما يلزم لدرء الحسد والحاسدين، وأعلن أن الطاحونة تعمل من هذه اللحظة وبنصف السعر لمدة ثلاثة أيام، وأنه قد عين حسينوه محاسباً وحارساً للطاحونة فهو على الأقل يقرأ ويكتب ولو لم يتعلم في المدرسة، وقدم لهم «أبو إسماعيل» الميكانيكي وهو جراش[1] الطاحونة الجديدة فسرت همهمات هنا وهناك، البعض يبارك والآخر يتمنى أن يكون طحينها ناعماً وبدأوا بالانصراف بينما بقي حسينوه مذهولاً بالوظيفة الجديدة يداري فرحته المشوبة بالحذر، وعينه على ملابسه الرثّة التي لا تتناسب وهذه الوظيفة.

في المساء اجتمع حشد من أهل القرية في (أوضة) أبي إبراهيم، صحيح هو لم يكن مختارا، ولكنه من الوجهاء، لا بل يحظى باحترام العشيرة أكثر من المختار، وبعضهم يصرح بهذا علانية بقوله:

---

(1) الجرَّاش: من يقوم بطحن الحبوب (ميكانيكي المطحنة).

Twitter: @alqareah

أبو إبراهيم اخترناه بأنفسنا، بينما المختار نصّبته الحكومة ولولا الخوف من شرطة البرك لسحلته أمام (أوضته) . . . .

قطع أبو إبراهيم الصمت في المجلس قائلا:

الحمد لله يا أهلي وأقاربي أن أصبح لدينا طاحونة لواحد من أبنائنا. ولم يبقَ خبزنا بيد القرى الأخرى وحاج عكلة واحد منا، وحلاله حلالنا والطاحونة بحاجة لتعاونكم ولا يجوز لأحد أن يذهب إلى غيرها، فالقريب أولى من الغريب، تهللت أسارير الحاج عكلة من كلام أبي إبراهيم، و لربما فوجئ به وهو الذي أساء معاملته وطلب من أبناء الحي الشمالي مقاطعة (أوضته) وعيَّرهم بشرب القهوة عنده، فما كان منه إلا أن قام وصافحه وسط هلاهل عدد من النسوة وصرخات الرجال، فتحمس الحاج عكلة، وأخرج مسدسه وأطلق مشطاً من الرصاص في الهواء. انتصف الليل والقهوة تدار بانتظام على الحاضرين، في صدر المجلس يتربع الشيخ مصطفى مهيب الطلعة يكاد النور يغمر محياه، ورغم سمرته فإنه يبعث على المهابة، تسترسل لحيته الكثَّة التي يخالطها البياض إلى صدره، لم يكن من أفراد القبيلة، ولكنهم يحبونه ويجلُّونه ويمازحونه أحيانا بقولهم:

ـ نحن نعرف المشايخ بيض الوجوه ضخام الأجسام ويخاطبوننا بلغة لا نفهمها أما أنت. . . . ، يبتسم الشيخ مصطفى بتواضع ويجيبهم:

Twitter: @alqareah

ـ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم بل إلى أعمالكم، ويضيف أنا ابن قرية وأسمر أيضا، فيضحك الجميع.

وعندما أرادوا مغادرة ((الأوضة)) طلب منهم الشيخ مصطفى البقاء بعد أن استأذن من أبي إبراهيم واعتدل في جلسته، وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي وقال:

ـ نعم، لقد أنعم الله على هذه القرية بالزراعة الوافرة والأرض الطيبة والطاحونة وهذه الوجوه الطيبة، ولكن بقي ينقصها شيء واحد مهم،فعلت الدهشة وجوه الكثيرين وسرت تمتمات كثيرة تستحثه على الكلام، فتابع: المسجد يا إخوان المسجد، لا يمكن أن تبقى هذه القرية بدون مسجد . .

هدأت نفوس الحاضرين، وشقَّ صوتٌ من آخر الجالسين الصَّمت الذي ساد برهة (وأنا أشهد الله والحاضرين أني قد وهبت قطعة الأرض التي أملكها مسجدا لقريتنا. لم يخطئ الحاضرون صوت حاج طريف، فارتفع التكبير على لسان الشيخ مصطفى قائلا: بارك الله فيك يا حاج جاسم، وتتالى الثناء عليه من كل جانب، لحظات لا تُعوَّض. أنهى أبو إبراهيم الجلسة، واعدًا الجميع أن (تعليلة) الغد أي السَّهرة ستكون لاستكمال الترتيبات، فهز حاج طريف كتفه وافتعل السُّعال وقال: (في جامع نبي الله زكريا) فوقعت عينه على حسينوه: فأشاح ببصره عنه، وابتلع صوته ونهض مستندا على باكورته بتثاقل. . كما ابتلع بيلان هذه الجموع وسط ظلام دامس، وفرَّقهم بين شمال وجنوب، لتغيِّبَهم تلك

Twitter: @alqareah

الجدران الطينية الواطئة التي لا تخلو من بقع ضوء باهتة تكاد لا ترى.

حضر الشيخ مصطفى إلى ((الأوضة)) مبكرا فبيته يكاد يكون على مسافة واحدة من شمال بيلان وجنوبه، وأرض المسجد التي تبرع بها حاج طريف هي الأخرى في الزاوية عينها، ومع فنجان القهوة ودخان السجائر وقرقرة الأراكيل كانت ((الأوضة)) مزدحمة بالرجال، فمال الشيخ مصطفى إلى أبي إبراهيم وهمس في أذنه بضع كلمات، نادى أبو إبراهيم أحد الشباب وطلب إليه أن يذهب ليحضر بقية الرجال، وأمر الشاب أن يقترب أكثر منه، وأن يكمل ما أمر به، وبعد فترة وجيزة اقترب صوت سيارة، أضاءت بيلان مصابيحها، فوقف معظم الرجال ينتظرون والدهشة تعقد ألسنتهم، فالقادم لا يتوقع حضوره في مثل هذه الأوقات، تقدم أبو إبراهيم وإلى يمينه الشيخ مصطفى إلى السيارة وفتح باب السيارة، السيارة معروفة تماما لكل أبناء القرية، ومن لا يعرف ((الأولدزموبيل))؟ وصاحبها معروف أيضا، فرحب أبو إبراهيم به قائلا:

ـ أهلا بك بيننا يا خواجة موريس

ـ أهلين فيك يا أبو إبراهيم؟ منوَّر

ساد الصمت، وأصبح الوقت لزجاً،فغرق الكثيرون في بئر الانتظار،المسجد،الخواجة موريس.. غيمة من دخان السجائر تعلو رؤوس الرجال، ودارت علب التبغ الحموي بينهم.. ولم يطل الانتظار، عندما قال الشيخ مصطفى بعد أن حمد الله، وصلّى على

Twitter: @alqareah

النبي: هذا أخونا موريس، حضر إلى هنا بناءً على طلبه، يريد أن يتحدث إليكم .

اعتدل الخواجة موريس الذي كان يجلس على (طرَّاحة) ثخينة فلباسه الحضري لا يساعده على الجلوس على اللبابيد أو السجاد، وحرك نظارته للأمام قليلا وقال:

أنتم تعرفون أنني من حي الميدان بحلب، ونحن أرمن مسيحيون، هربنا بجلودنا ذات يوم، وهمنا على وجوهنا في الصحراء، فهيأ الله لنا بدل الأهل أهلاً، ثم إنني ممن يداومون على (قداديس) الأحد عندما أكون في حلب، لكنني الآن واحد منكم أعيش بينكم، منذ أن عملت (المصلحة)أو المزرعة على أرضكم، فالموتورات لايمكن لي تركها وخصوصاً في الموسم، يعني أنني شريككم في خيركم، ولهذا جئت أبلغكم بأنني مساهم بالحجر والإسمنت لبناء المسجد في قريتكم وعلى حسابي الخاص، وسيصلكم خلال أسبوع ... انطلقت الحناجر وعلت هلاهل[1] النساء اللائي يجلسن قريباً من ((الأوضة)) مختلطة بالرصاص الذي انهمر كالمطر، واعتذر الخواجة ونهض إلى سيارته بعد أن قرأ الحضور الفاتحة، بينما تمتم الخواجة ((أبانا الذي في السَّماء، السلام عليكِ يا مريم)) وبحركة سريعة رسم إشارة الصليب على كتفيه وصدره، فابتسم الشيخ مصطفى وهو يودعه، ومال عليه بعد أن استوى خلف المقود، وهمس:

---

(1) هلاهل: جمع هلهولة وهي الزغرودة

Twitter: @alqareah

ـ نأمل أن تؤدي الصلاة في مسجدنا ومسجدك يا خواجة ذات يوم.

ضحك الخواجة موريس وقال:

ـ أنا أصلّي يا شيخنا دائما، ولكن في مكان آخر.

Twitter: @alqareah

3

حويجة الشحرورة [1]

بسرعة استطاع حسينوه أن يتكيف مع وضعه الجديد، جلّابية جديدة وكلاش[2] ديري وجمدانة للحاج عكلة، صحيح أنها مستعملة، ولكنه استعمال نظيف، ومفتاح الطاحونة بيده طوال الوقت وفي اليد الثانية عصاً قصيرة بمسامير مثبتة على رأسها أو دبوس كما يسميها، فهو لا يستقر بمكان واحد دقيقتين حتى قال له الحاج عكلة: أشك أنك بقيت في بطن أمك تسعة أشهر، فضحك ضحكته القصيرة المتقطعة قائلا:

---

(1) الحويجة: الجزيرة.

(2) الكلاش الديري: نعل يصنع من الجلد، وتشتهر دير الزور بتصنيع هذه النعال.

Twitter: @alqareah

- والله كأنك تعلم، فعمَّتي وردة الصَّرارة[1] تقول عني: السُّبيعي، ونظراً لارتفاع هدير المحرك أعاد العبارة الأخيرة للحاج أكثر من مرة، حتى ضحك وعندما التفت الحاج إليه لم يجده إلى جواره، فقد خرج إلى الطريق العام المار من أمام مدخل الطاحونة الرئيس وهو الطريق الذي يوازيه خط الهاتف بأسلاكه النحاسية وأعمدته الخشبية، ولهذا سمي بطريق عمد التيل واختصر الاسم فأخذ أهل المنطقة يطلقون عليه ((عمد التيل)). من هذه الطريق جاءت سيارة (اللاند روفر) الخضراء التي تطلق مزاميرها لحسينوه ليقترب إلى السائق متهيباً مما قد يلاقي من طلبات الشرطة أو الموظفين الحكوميين، الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام برجب، ولكن السائق وهو يدير الزجاج إلى الأسفل بيده بادره:

- عويفي

- ها!!

- يعطيك العافية، حبيبي

- الله يعافيك، آمر يا أفندي

- اركب معنا

فقفل حسينوه مسرعا إلى الحاج عكلة، ليستأذنه بالانصراف لأن الحكومة تريده أن يرافقها. . ولم ينتظر الجواب.

لحظات وكان في حوض السيارة الخلفي، وقد فَغَرَ فاه إلى

---

(1) الصَّرارة: المولدة، القابلة.

Twitter: @alqareah

آخره، وتكوّر حتى انكمش في كرسيه وانعقد لسانه من الدهشة، ومصدر دهشته ليست أكداس الأكل والعلب والزجاجات الملونة الكبيرة والصغيرة، ولا حتى الكلبة الكبيرة التي تشاطره الحوض الخلفي، ولعابها الذي يسيل من شدقيها.. لا ليس كل هذا، بل تلك المرأة الشقراء التي تلبس بنطالاً أقرب مايكون للألبسة العسكرية ونظارة سوداء كبيرة، وإلى جانبها رجل متوسط القامة، لكن بطنه ناتئٌ يترجرج مع حركة السيارة جنوباً في ذلك الطريق الترابي ((عمد التيل)). صحيح أن رائحة العطر تفوح من كل أنحاء السيارة، ممتزجًا برائحة الغليون في يد ذلك الرجل، لكن ذلك لم يهوِّن عليه الموقف، إلى أن حانت التفاته من تلك المرأة في الكرسي الأمامي إليه فصعق تماماً، إنه وجه مألوف لديه، شاهده ذات يوم، ولكن أين؟ أين ياحسينوه؟ أدركت حيرته، بل ورطته، قالت له بصوت لم يعتد سماعه منذ أيام العسكرية:

ـ شو اسمك حبيبي؟

ـ حسين، حسينوه

ـ أطلقت ضحكتها القوية، حسينوه اسم حلو!

ـ الله يحلِّي أيامك

ـ هل عرفتني ياحسينوه؟

ـ إي والله، شايفك. لكن لا أعلم لِمَ أنا هكذا لا أتذكر الأسماء، وتغيب عني وجوهٌ أعرفها تماماً، أنا حمار.

Twitter: @alqareah

التفت الرجل البدين الذي يدخن الغليون. وقال:

ـ يا الله شو مهضوم، لك هايدي الستّ الشحرورة، ولك هايدي صباح!

فقفز حسينوه من مقعده مما أفزع الكلبة إلى جانبه فهدأها السائق بقوله: ما تخافي أنا هون.

عادت إلى حسينوه صور الشحرورة وأفلامها التي حضرها في صالة أوغاريت في حلب وعلى حساب أحد أبناء القرية الدارسين في جامعتها، لم يكن يتصور أنه سيأتي اليوم الذي تقلُّه مع صباح سيارةٌ واحدةٌ، وتجرأ بالسؤال عن الرجل المجاور لها، فقال له ضاحكا: أنا ياخيِّ فيلمون، فيلمون وهبي! وإنت راح نضمك لفرقة الدبكة تبعنا، هدأت نفس حسينوه وأطلق ضحكته المجلجلة:

ـ أنا ملك الدبكة في الكسرة والسلام، لكن يمكن شاعرنا يختلف عن شاعركم أو زمَّارتنا غير زمَّارتكم.

ـ الدبكة دبكة بشاعر بدون شاعر، ما تعْتَل هَم.

التفت إليه السائق وطلب إليه أن يرشدهم إلى جزيرة الأمير، وما هو أقرب الطر ق إليها؟

استغرب السؤال، وأخبره أن لا جود لجزيرة أو أمير في هذه الديرة.

فالتفت إليه الرجل صاحب الغليون، وعدَّل السُّؤال بصوته العريض:

Twitter: @alqareah

- الحويجة حبيبي، الحويجة

- طيب يا رجل قلِ الحويجة من الأول، فصرخ بالسَّائق:

- بسرعة من عندك استدر يميناً في هذه الطريق الضيقة، واتجه إلى نهر الفرات، بقيت السيارة عند (مصلحة) الخواجة موريس، وعَبَر الجميع ومعهم تلك العلب الكرتونية الكبيرة والثلاّجات الحافظة وكسريات الصيد وأكياس من الطلقات، وتتقدم الجميع((كارمن)) التي يعاملها الجميع بتدليل يبعث على الحسد، ومن كثرة الأمتعة عبروا بذلك القارب الصغير على دفعتين لأن حسينوه أشار عليهم قائلاً:

- لايمكن أن نعبر بهذا الشَّاحوف[1] دفعة واحدة وإلا سنصبح طعماً لسمك الفرات

لأول مرة يكتشف حسينوه أن ثمَّة جنة صغيرة مجهولة لديه، رغم أنها لاتبعد عن الكسرة إلا مسافة يسيرة، غابة حقيقية من أشجار الغَرَب والطَّرفاء؟ أرض بكر لايقطع صمتها إلا صوت العصافير و الحُمَّرات، وتجوز سماءها أسراب الطيور بتشكيلات دقيقة تكاد تميز فيها القائد من الرعيَّة.

رطوبة النهر تدغدغ أحلامك القديمة فتصحو خيول الرغبة جامحة تحمحم بلا هوادة، وحسينوه شهاب لا تخمد جذوته، لم يهبط ظلام الليل إلا وقد اكتمل عقد أهل الحويجة والضيوف وفي

---

(1) الشاحوف: القارب الصغير.

Twitter: @alqareah

الحقيقة يصعب معرفة هؤلاء من أولئك، الكل يعمل عدا الست الشحرورة، التي انصرفت لملاعبة ((كارمن)) المدللة. بنيت ثلاث خيام في محيط واحد، وأشعلت النار وانتشرت رائحة الشواء، واليانسون، ودارت كؤوس العرق المخلوط بماء الفرات حتى أصبح لبناً نصفه من (كفريا) [1] ونصفه من النهر، وانطلق صوت الشحرورة وحيداً صافياً في هذه الحويجة، عَ النَّدَّا، النَّدَّا، النَّدَّا ورد مفتّح عَ خدّا، حسينوه يقاوم رغبته في أن يكون جزءًا من عالم هذه الحويجة، لكنه لا يصمد طويلاً، يترنح، يسقط، يقوم، يتوسط الحلقة ليدبك على طريقته غير مكترث بإيقاع أو لحن، يدخل في الإيقاع يخرج منه، إنه ذئب بريٌّ عصيٌّ على كل إيقاعات هذا العالم، يميل عليه ذلك الرجل الذي انضم للجماعة مرحِّبا وبشدَّة عند المساء يقول:

ـ من أيِّ الأعمام أنت؟

ـ من العامر، من الكسرة.

ـ أهلاً بابن العم ويطلق ضحكة عالية، وهو يطوح بقبضته المليئة بتراب الحويجة الرطب، الصبّوحة يزداد صوتها صفاءً وتنطق بمواويل ثم تعقبها بالدلعونة... عندما أشرقت الشمس كان الجميع قد نام أمام الخيام إلا الست ((وكارمن)) داخل الخيمة الكبيرة، بينما كان حسينوه يعبر النهر عائداً إلى طاحونته، تلك

(1) كفريا: بلدة لبنانية تشتهر بصناعة العرق.

Twitter: @alqareah

التي لولاها لما قابل الشحرورة، ولما عرف أن الجنَّة قريبة.. قريبة وأشجارها من الغرَب والطَّرفاء ومحاطة بالزلِّ[1] من كل مكان. يأتي إليها الباحثون عن الهدوء والمتعة، متعة الصيد والأرض البكر، يأتون من آخر الدنيا، بينما أهل الأرض منشغلون عنها بلهاثهم الذي لا ينتهي خلف الرغيف أو الحُبِّ أو الهروب من الموت. هجرهم الفرح وغابت شمسهم خلف تلك الجبال، جبال مَسْكنة غرباً، رغم أنَّ النَّهر مازال يتدفق متجهاً إلى الشرق، محملاً بمواويلهم وآهاتهم لينقلها مع الأغصان اليابسة إلى بقية أهلهم المنثورين على ضفتيه من مواضع أقدامهم إلى شط العرب.

(1) الغرب، والطرفاء، والزل: من أشجار ونباتات المنطقة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

4

وَلْـدة [1]

رغم هدير المحرك في الغرفة الداخلية للطاحونة، وكثرة الزبائن هذا الصباح ولغطهم، كان حسينوه زائغ النظرات مرهقاً، يتلمظ، يمجُّ سيجارته بعمق، لفت أنظار عدد من النساء، فهو على غير عادته لا يشاركهن النكات البذيئة، قالت له إحداهن:

ـ متى هبط عليك هذا الأدب يا حسون؟

ـ اتركوني بحالي، وابتعدي عني فرائحتك (صنان)، وافتعل حركة تظهر رغبته في القيء، وهرب بعيداً وقد أطبق بإصبعه على أنفه،

(1) الولدة: نمط من أنماط الدبكة الشعبية في وادي الفرات، تتميز بإيقاعاتها السريعة.

Twitter: @alqareah

فتعالت الضحكات والتعليقات فرفعت إصبعها أمام عينيه بحركة هي الأخرى فهم معناها تماماً، فانسحب بهدوء، وانشغل بتسجيل الدور، وأكمل بقية وزن أكياس القمح وحساب الأجرة مسجلاً كل ذلك في دفتر اليومية، متحسساً ذلك المسدَّس الصغير الذي اشتراه مؤخراً، واشترى معه حمَّالة جلدية يحرص على إبرازها وخصوصاً في اليوم الذي تكثر فيه النساء، وأصبح يردد كثيراً أمام أهل القرية: إن طاحونتنا هي الأفضل، وأخذ يتجاهل كثيراً ذكر طاحونة الحاج عكلة ويكتفي بقوله:

(طاحونتنا)، بيلان كتلة من الرصاص والهلاهل والناس يتدافعون إلى ذلك الممر الذي يفصل بين الشمالي والقبلي، ولكنه مملوك من الجميع، يغلق حسينوه الطاحونة على عجل، ويطلب من العم إسماعيل الجرَّاش إطفاء المحرك والانصراف إلى بيته، يتجه بخطواته السريعة إلى بيلان، وكلما اتجه إلى الغرب يصله صوت الزمَّارة بوضوح أكثر والأغاني تتداخل كلماتها فلا يفهم شيئا، لكنه أصبح متأكداً من حصول مناسبة كبيرة في الكسرة، فيقول في نفسه:

ـ يبدو أن مواسم الفرح تقترب يا زلمة.

ولم يصل إلى حلقة الدبكة إلا وقد عرف أن الأساتذة أو هكذا كان أهل القرية يطلقون عليهم هذا اللقب، وهو لقب يستحقه الطلاب بمجرد الانتقال إلى المرحلة الإعدادية في الناحية أي إعدادية مريبط، ويتقبله الجميع برحابة صدر، وهم يتصرفون على

Twitter: @alqareah

هذا الأساس، الأساتذة تخرجوا، الأستاذ صالح بن حاج طريف من كلية الهندسة المدنية، وأحمد ابن المختار من كلية الهندسة الزراعية، أما علي بن الحاج عكلة فقد اكتفى بالثانوية الصناعية.

لم تشهد الكسرة في حياتها حفلاً أكبر من هذا، فالدَّبكة لم يستطع شاعر[1] واحدٌ أن يحرِّك حلقتها رغم أن (قاسيما) سيِّد الزمَّارة في هذه الناحية من منطقة الفرات، اضطر لإحضار شاب صغير معه لا يعرفه أحد فاستصغروا شأنه، ولكنه أخرج زمَّارته من جيب (السَّاكيَّة) [2] الداخلي بحركة بهلوانية لا تخلو من تحدٍّ واضح للجميع وربما لمعلِّمه (قاسيما) بالدرجة الأولى، فاشتعل الحماس في النفوس، ومالت الصدور والأرداف، وضُربت الأرض بحركات موقعة ولا أجمل! وبسرعة البرق دخل حسينوه الحلقة وهو يكشف المسدَّس بحركات لا تخفى على أحد، وصرخ بأعلى صوته: وَلدَة، وَلدَة، ياعم قاسيما الله يدخلك الجنَّة، فوصلت الرسالة سريعة فتغير الإيقاع، وطرقَتِ الأقدام الأرضَ بحركتين متتاليتين ثم بحركة خاطفة، فصرخ مرة أخرى:

ـ هذه.. هي دبكة الولدة على أصولها وأطلق سيلاً من الشَّتائم على من لا يدبك الولدة، أو لا يستحسنها، فعلا الصراخ من كل مكان، والتمع القَصَب على الصدور، وسقطت العُقُلُ على أرض بيلان ليختار الشاعران أفضل (الدَّبِّيكة) وأكثرهم عطاءً

(1) الشاعر: يقصد بالشاعر في منطقة الفرات عازف الزمّارة (الشبابة).
(2) الساكيَّة: الجاكيت.

Twitter: @alqareah

وكرماً، ليجلسا أمامه راكِعَيْن، فيخرج الأوراق النقدية من جيبه، لينثر منها ما شاء على رأس قاسيما، أو يدخل بعضها تحت عقاله، وابل من الرصاص ينطلق، ترافقه هلاهل النساء الواقفات في الخلف، يخفت اللحن قليلاً، تغير البنات مواقعهن وكذلك الرجال، وهذه المرة يطلق حسينوه يده في أموال الطاحونة، فيستقر جزء من اليومية في جيب قاسيما أو رفيقه، هذا القرد الذي لا نعرفه كما قال حسينوه، ولكنه بارود مشتعل، حوَّل ليل الكسرة إلى نهار يضج بالحياة ورائحة المَحْلب والخضيراء، وقبل أن ينصرف الناس وقف الحاج عكلة، وقال بصوته المعروف:

- يا إخوان، إحنا اليوم سعداء بتخرج أساتذتنا وأولادنا، وأنتم تعرفون أنهم عيالنا ولا نفرق بينهم، لذلك عشاكم اليوم عندنا أنا والحاج جاسم والمختار، وقدور اللحم وخبز الصاج جاهزة وأخواتكم وأمهاتكم جهزن كل شيء، تفضلوا، تفضلوا، أهلاً وسهلاً، وليكنْ معلوماً لدى الجميع أنَّ الطحين غداً مجاناً، دوَّت ضحكة حسينوه ليقول:

- يا ليت يا عمي الحجي تعتبرها مجاناً من اليوم!

- ليش من اليوم؟

- لأن أجرة اليوم راحت في جيب قاسيما ياعم.

- يضحك الجميع وينطلقون للسلام على آباء الخريجين والأساتذة، يميل حسينوه إلى أذن المهندس صالح فيقول: راحت أيام

Twitter: @alqareah

السينما يا ابن العم وقد أتيت برجليك لعجاج الكسرة وتعليمات الحاج جاسم.

ـ ما حزرت يا حسينوه! لن يطول بي المقام في هذه الأرض.

لم يفهم حسينوه تماماً، ولكنه تابع تهنئته للأستاذين الباقيين، وضغط على يد الأستاذ علي وقال له:

ـ ألا تفكر في أن تستلم إدارة الطاحونة يا أستاذ؟

ـ فاكتفى الأستاذ علي بنظرة حادة، تجاوزها حسينوه سريعاً، ليقفز إلى صينية كبيرة مجللة باللحم، وقد فرشت بالخبز المغطس بالمرق الأحمر، واستغرق في الأكل، وقد اختلطت في ذاكرته أغاني قاسيما وصوت شبَّابته الشَّجي بصوت الصبُّوحة وعَ النَّدَّا النَّدَّا النَّدَّا ورد مفتَّح عَ خدَّا. . . .

ـ بيلان ذلك الفاصل بين عالمين متلاقيين متنافرين، وجزيرة الأمير فردوس مفقود وعالم من المتعة، و أهلين بابن العم، تغيب كل الوجوه حتى وجه كارمن، تظلله أشجار الغرب والطرفاء.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

5

البَـــرْك[1]

صوت الشيخ مصطفى هذه الجمعة بدا هادئاً شجياً، وقد ارتفع من على مئذنة المسجد الذي يتوسط بيلان، هذا المسجد الذي انتهى بناؤه للتوِّ، وفرح به أهل الكسرة فقال كبارُ السنِّ: لقد رحمنا الله بهذا المسجد، فصار لنا مكانٌ يُصَلَّى فيه على أمواتنا، ويُخطب فيه للجمعة والأعياد، وقالت النِّساء:

لعلَّ هذا المسجد يجتذب الرجال قليلاً فتخفّ علينا وطأة

(1) البَرْك: (Barge) كلمة إنكليزية معناها مركب بضائع أو زورق بخاري، وهي تستخدم للدلالة على سفينة تنقل الركاب والسيارات من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى في حركة يومية لا تهدأ.

Twitter: @alqareah

أوامرهم ونرتاح منهم، أما حاج طريف فقد أسرع إلى المسجد ويداه مبللتان إلى المرفقين ولحيته مُخْضلَّة، ولكنَّه عاد من منتصف الطَّريق ليعيد وضوءه ويخرج مسرعاً كما فعل أول مرة، فسأل صالح أمه عن سبب عودة أبيه فقالت له:

هذه حاله من يوم تزوجت أختك نجمة، فهو يتوضأ عشرات المرات، ولا يتكلم إلا قليلاً، حتى نومه أصبح قليلاً، وقرأ عليه الشيخ مصطفى عدة مرات ولكن لا فائدة، حاله تسوء يوماً بعد يوم، فهزَّ المهندس صالح رأسه وأطرق متجهماً، ولم يزد على قوله: لعله خير.

عندما دخل والده إلى المنزل، وقبل أن يتخفَّف من عباءته، بادره بقوله:

- أخبرتني الوالدة أن صحتك ليست على ما يرام.

- هذه المرأة لا تصبر على كتم سر، ألم أقل لا تضيّعي على المهندس فرحة التخرج؟ أُسقِط في يد أم صالح وقبل أن تدافع عن نفسها، قاطعها صالح:

- المهم يا حجّي يجب أن تعرض نفسك على طبيب في الرقة أو حلب.

- الأمر لا يستأهل، لا تشغل بالك.

التفت صالح إلى الباب فرأى أمَّه تخرج إلى الظلام خارج عتبة الباب، تشير إليه بالخروج إليها دون أن يشعر والده، فاعتذر بلطف وخرج إليها، همست:

Twitter: @alqareah

ـ الوضع يا بنيّ ليس له علاقة بالطب، هذا الأمر لا يقدر عليه إلا الشيوخ ـ دستور من خاطرهم ـ انتفض صالح فأمسكت بيده وضغطت عليها:

ـ ولكن !

ـ نعم هذا هو الوضع

عندما استيقظ صالح لم يجد أمَّه وأباه في المنزل، كانت أم صالح وحاج طريف مقرفِصَيْن عند قبر كبير يتصدَّر مقبرة القرية هو قبر ((عكاش)) ويتمتمان بأدعية لا تنتهي ممسكَيْن بحفنةٍ من ترابه، وقد نهضت أم صالح إلى الشَّجرة اليابسة التي ركزت عند شاهدة القبر، فقطعت من ذلك القماش الأخضر الذي يلفها شريطاً صغيراً وربطته بيمين الحاج، وقالت:

ـ سمِّ الله يا حاج، واطلب منه سبحانه وتعالى الشِّفاء.

ـ اغرورقت عيناه بالدموع، أخفى عينه بطرف جمدانته، ثم نهضا إلى طريق «عمد التيل » القريب من المقبرة ينتظران سيارة حمادي المحمود أو سيارة مصطفى الخلف ولا ثالثة لهما في الكسرة، ولكن هذا اليوم حظّهما كان أسرع من الاثنين إذ مرت سيارة عابرة وهي (بوسطة) خلف الغدا فركبا سريعاً وهذا يوفر عليهما أسئلة كثيرة فركاب هذه البوسطة لا يعرفونهما واقتصر الحديث على السلام والسؤال عن الموسم والأخبار الجديدة حول سد الطبقة، ولأن حاج طريف لا يصدق هذا أساساً، لم يظهر اهتماماً بمتابعة الحديث، فساد الصمت، إلا من شريط التسجيل الذي

Twitter: @alqareah

بدا استمراراً لزمّارة قاسيما لا غير وقهقهات خلف الغدا وتكراره للقول:

إنَّ عليهم أن يحمدوا الله أنَّه جاء مبكرًا، لأن اليوم هو ((البازار)) في مريبط والناس عادة يأتون من كل القرى لشراء حاجياتهم، أو زيارة الطبيب الوحيد في الناحية الدكتور عدنان قهوجي الذي يدير مستوصف الحكومة وعيادته الخاصة وأحياناً لا تستطيع أن تعرف الفرق بين الاثنين، بُهر حاج طريف من كثرة الناس، لفت نظره رجل طويل أشقر يضع نظارة ذهبية مدورة، أخبروه أنَّه المسيو (جوفياني) خبير الآثار في تل مريبط، فما كان منه إلا أن ابتسم رغم مسحة الحزن التي تغطي وجهه، وقال:

ـ والله ما أدري أيُّهما الأهم الأموات أم الأحياء؟

فتدخل أبو شعبان المترجم وابن المنطقة قائلاً:

ـ يا حجّي هذا تاريخ و مريبط كانت أول تجمُّع سُكَّاني في التَّاريخ، وأول من قدَّم للعالم خبزه من القمح والشعير.

مطَّ حاج طريف شفتيه وقال:

ـ هل ننتظر حتى نصير تاريخاً كي يصلنا الزِّفت أو الحكيم؟ نعطي الخبز للنَّاس ونحن جائعون، وأصدر صوتا قويًّا من فمه !

لم يعجب هذا الحديث أبا شعبان فتابع حديثه:

ـ يا حجّي أنا كنت في الجيش الفرنسي وعرفت منهم أن حياة النَّاس مهمَّة ويجب دراسة آثارهم وبيوتهم. . .

Twitter: @alqareah

فقاطعه أحد الحضور لا يعرفه الحاج وأم صالح، ويبدو أن الآخرين يعرفونه تماماً مقهقهاً:

ـ ماذا استفدت يا أبا شعبان من الفرنسيين؟ أخبِرْ الحَجِّي أنك فقدت أعزَّ ما تملك على أيديهم أيضاً.

فعلَّق آخر بسخرية:

ـ يا أخي الجماعة عندهم حق، خايفين على نسوانهم!

لم يتوقع أبو شعبان أن يصل الحديث إلى هذه المنطقة المؤلمة له، جنرلات وأوسمة ومارشات عسكرية ... كانت تعبر تلك المنطقة الرَّخوة من الذاكرة، كان شوكة في عيونهم، عاشقا لأرضه وأهله، ولكن...، بينما الحاج وأم صالح وآخرون كانوا مقرفصين وسط (البرك) تلك السَّفينة الكبيرة المعلَّقة بالكابل الحديدي بين ضفتي النهر وقد أصبحت أقرب إلى الضفَّة الأخرى، وصوت العمال يستحثُّهم على الاستعداد أو للنزول إلى الشَّامية، وحاج طريف مستمرٌ في غَرْفِ الماء من الفرات ليغسل يديه ولديه شعور أنَّهما لمَّا تبرآ من دنسهما بعد، فيعيد الأمر مرة بعد مرة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

6

عَـرودَة

إنَّها المرة الأولى التي تشعر فيها أم صالح أن الحاج يحتاج إليها. . . كانت تراه صخرةً من صخور جبال مسكنة، أو قمة شامخة كقمة جبل ((الحَمْرا)) الذي يحتضن الكسرة من الشرق. . . احتضنته كطفل صغير وهما في الباص المتجه إلى منبج، كان منكسراً مستسلماً وكانت تدني إليه فروته، فالبرد مازال قارصاً رغم ارتفاع الشمس، الباص يتجه غرباً، والحاج يمسح المكان بعينين غائمتين، وبين الصَّحو والنَّوم، تعبر الوجوه سريعة أمام عينيه. . وكلما اقترب من حلب، يزداد تكوُّره على نفسه. . ويسحب فروته إلى صدره، ويضغط بجسده الذي صار نحيلاً على صدر أم صالح. . يلوذ بها. . يصرخ بصمت، تطارده تلك الوجوه

Twitter: @alqareah

والشوارب المعقوفة والسكاكين اللامعة، وبحسيّته، وذلك البياض اللذيذ، فتريح أم صالح رأسه، وتطمئنه:

- لم يبقَ إلا القليل يا حاج، ونكون عند الشُّيوخ والشَّيخ يده مباركة يا حاج، مباركة، يهز رأسه بالموافقة، وعيناه مازالتا غائمتين، والوجوه تعبر جانبي الطَّريق بلا ملامح محددة، وكلما أسرع الباص غابت ملامحها حتى تصبح نقطة تنزلق من جديد.

في مَنْبِج وباهتمام مباشر من الشَّيخ وأبنائه، ينام الحاج نوماً عميقاً قد جفاه منذ فترة طويلة، فيمسح الشَّيخ الكبير يده على جبينه، ويدعو له بالسَّكينة والطمأنينة، ويقرأ له بضع آيات من القرآن الكريم، ويوصي به الإخوان، ولذلك عند إقامة مجلس الإنشاد ليلاً، وضعوه في وسط الحلقة وبدأت المجموعة تنشد:

يـا بـرقَ الـشَّـام بـلِّـغ سـلامـي
إلـى مُـحـمَّـد خـيـرِ الأنـَـام

وشاركت أم صالح ولكن الشيخ طلب منها خفض الصوت، قال:

- يا أم صالح صوت المرأة عورة، ولكن تستطيعين المشاركة مع الأخوات في الجهة الثانية، كانت فرحتها كبيرة عندما رأت الحاج يأكل وينام لا بل صار ينشد مع المنشدين، وقد تشجعت أن تطلب منه أن يعرِّج معها إلى ضريح الشيخ عرودة وأخبرته بأهمية هذه الزيارة. . . .

Twitter: @alqareah

جبلٌ أجردُ من كل شيء.. لاشيء فيه سوى ذلك الضريح، حتى الأشواك لا تنبت فيه، وللوصول إلى المقام لابد من اعتلاء ذلك الجبل عبر فتحة في صخرة كبيرة والناس يمرون عبر ثقب أحدثته الطبيعة فيها، وشاطئ الفرات ليس بعيداً عنها ولكنه شاطئ الشَّامية، كانت أم صالح تمسك بيد الحاج وهي تحاول مساعدته للوصول إلى المقام، وفي الوقت ذاته يتبعان الجيِّم[1] وهو الرجل الموكل بحراسة المقام، والاهتمام بشؤونه، ومعهما آخرون حضروا من مناطق مختلفة ولغايات مختلفة، لكنَّهم مهمومون متعبون فجأة وقف الجيِّم، وبعد أن أدار سبحته بحركات سريعة قال بصوت خفيض:

هذا مقام سيدي الشَّيخ عَرودة، صاحب الكرامات التي هزمت الإنكشاريَّة، وحبست جنودهم وجعلتهم كالأرانب، رفض تسليم البلاد لهم، ولم يهن عليه أن يسيطر الأجنبيُّ على أرضنا، مما اضطر الباب العالي في الآستانة إلى التفاوض معه، فأرسل له مفوَّضا وعندما سأله عن طلباته، قال له: لك ما تريد من الأرض؟ ولكن الشَّيخ لم يزد على كلمتين: خطوة واحدة، فاستفسر منه المفاوض العثماني فكرَّر عليه قوله: خطوة واحدة، فوافق مباشرة وربما ظنَّ به الظُّنون، أتدرون يا إخوان ما خطوته؟ ساد الصَّمت ولم يقطع وجومهم إلا صوت أم صالح:

يا خيِّي أخبرنا ما هي خطوته ـ دستور من خاطره ـ أطرق الجيِّم

---

(1) الجيِّم: هو قيِّم المقام أي المسؤول عن شؤونه.

Twitter: @alqareah

قليلاً، زفر زفرة حادَّة، وأشار بيده إلى الغرب، وقال:

كانت خطوته مابين منطقة الباب شمال شرق حلب إلى المكان الذي تقفون عليه، علت التكبيرات والتهليلات، فتحمَّس الجيِّم وأضاف:

هذه الأرض كانت مليْئة بالأحراش والغابات، وهي من أخصب الأراضي، وأشار إليهم أن اتبعوني إلى قمة الجبل، ورغم أن هذا الجيِّم كان ممتلئ الجسم لكنَّه كان خفيف الحركة يصعد الجبل بخفَّة ورشاقة، وأم صالح تسحب الحاج جاسم بمشقَّة لاتخفى على الآخرين وأخيراً وصلا، فقال الحاج بصوت متقطِّع:

ـ وهل كان الشَّيخ عرودة مصرًّا على السَّكن في هذه القمَّة؟

فضحك عدد من الزوار ولكنَّ الجيِّم رمقهم بنظرة حادة، وقال:

ـ نعم، سيِّدي أراد القمَّة لأن من يسكن الجبل يسيطر على السهل، وكان من كراماته أنه يرى من على هذه القمَّة حدود أرضه، ويعرف مَن مرُّوا عليها، ويرصد تحركاتهم، فسألت أم صالح ومن أين يأتي بالماء في هذا الجبل الأجرد فرد الجيِّم رد العارفين:

ـ انظروا إلى هذا الجُبِّ إنَّه متصل بنهر الفرات لذلك لا حاجة للنزول عن القمَّة،

أخرج الرجال محافظهم ووضعوا الأوراق النقديَّة في حفرة قريبة من المقام، وعينا الجيِّم ترقبان بدقَّة شديدة، وجسده يبدو

Twitter: @alqareah

متحفزاً لعمل ما، بدأ الظلام يهبط على جبل عرودة، فيغيب المقام ويصبح النَّهر أقرب، ولا ممرَّ إلا ذلك النُّقب في الصَّخرة التي تسدُّ الطريق، عادوا لكنَّهم هذه المرَّة مطمئنين إلى أن الشَّيخ عرودة يرقب الأعداء من قمَّته فيصل نظره إلى حلب، فتنكفئ الإنكشارية ومظالمها إلى حدود الصَّمت.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

7

أمُّ الواجِعَات[1]

لم تكتمل فرحة المهندس صالح ورغم أنه أتى بالشهادة التي كان يحلم بها، صحيح أنَّه تألم لترك حلب تلك المدينة التي تعجبه كثيراً بأهلها ومثقفيها ومكتباتها ونسوانها، لكنه يحلم بمستقبل آخر. كان يخطط لحفلة كبيرة لتسلُّمه الشهادة، ولكنه وجد الحجي كما اعتادت أمه أن تناديه وقد ساءت حاله،وأخبرته الوالدة أنه يقضي الليل متألماً فمرة ظهره،وأخرى رأسه، وينتقل الألم فجأة إلى خاصرتيه، لا يعرف النوم، والموت هاجسه الذي لا يكف عن

(1) أم الواجعات: طبية شعبية للعيون تحاول مساعدة أبناء محافظتها على طريقتها، وتحظى باحترامهم.

Twitter: @alqareah

ترداد ذكره، وقد زاده طلاق نجمة من ابن المختار همًّا على همومه، فاعتزل المسجد وأخذ يصلي في البيت وربما أعاد صلاته عشر مرات. قالت أم صالح:

- يا ولدي، لن نتركه هكذا، علينا أن نذهب به إلى الرقة.

- ماذا في الرقة؟ الأَولى أن نذهب إلى حلب فهي أم الأطباء والمستشفيات.

- لا يا ولدي، سنذهب إلى الرقة، إلى عمك سليمان فهو من سكان الرقة وأعرف منا.

- لم يجد صالح بدًّا من الإذعان لرغبة والدته وهي فرصة للقاء أبناء عمه، ولديه مشاريع أخرى.

في المدخل الكبير لبيت عمه في حارة السور القديم استقبله حسن ابن عمه سليمان مرحباً، وكالعادة استقبله صالح ببيت الشعر الشهير الذي هجا فيه الشاعر الفدعاني جبن أبناء المدن:

الركَّة[1] مافكَّت وسيج[2] والغُولي[3] ماعُمْره غزا

فقال له حسن: يبدو أنَّ شهادة الهندسة لم ترفع من مستوى تفكيرك، فأنا ابن عمك ولست من الغول!

---

(1) الركة: الرقة بإبدال القاف كافاً وتلفظ (جيماً) مصرية وفقاً للهجة أهل الفرات.

(2) الوسيج: الأسير.

(3) الغولي: اسم يطلق على أبناء المدينة، وهي محرفة عن مفردة تركية حسب البعض(القولي) وتستبدل الغين بالقاف.

Twitter: @alqareah

ـ صحيح، ولكنهم أخوالك، والولد ثلثاه لخاله.

ـ نعم، نحن لا نغزو الآخرين، ولا نسرق أغنامهم باسم الشجاعة هذه لصوصية يا ابن العم!

تدخلت أم صالح لإنهاء هذا الاشتباك وقالت:

الحجِّي تعبان وأنتما تثرثران، فابتلعا ريقيهما ودلف الجميع إلى غرفة الضُّيوف.

في المساء غمز حسن ابن عمه صالح، ففهم عليه فخرجا مسرعين قال له:

دعنا من جلسة العواطف هذه، فمن المؤكد أنهم سيروون تاريخ القبيلة كاملاً من الهجرة من جزيرة العرب عقب خراب سد مأرب إلى سنة النزوح إلى سهل العمق غربي حلب، ماذا تريد أن تقول؟

ـ أريد أن نحضر فيلماً سينمائياً جديداً تعرضه سينما الزهراء.

ـ أي والله، لم أدخل سينما منذ أيام حلب.

وفي الطريق أخبر صالح ابن عمه أنه يريد الذهاب إلى الطبقة في الصباح قائلاً:

ـ سأحتاج إلى حوالي الساعتين ذهاباً وإياباً بينما يرتاح الحجي، فأنا أنوي تقديم أوراقي إلى دائرة التوظيف في مشروع السد في الطبقة، فاعترض حسن تقصد سد الثورة، رد عليه صالح

ـ يا سيدي قبل الثورة وبعدها، كنا نسميها الطبقة، وستظل كذلك.

Twitter: @alqareah

لم تعجب حسن اللهجة التي تحدث بها ابن عمه، ولكنه لم يتوقف عندها كثيراً، فقد كان في عجلة من أمره يريد التأخر عنه قليلاً، فأشار إليه أن استمر في الطريق، وسأتبعك بعد لحظات، فأخذ صالح يقصر خطواته بعد أن انعطف من خلف تمثال الفلاح الذي يتوسط الساحة الرئيسية في المدينة، وهو التمثال الذي أعطوه في قريتهم اسماً آخر، إذ أطلقوا عليه تمثال (صبحة وعوّاد) وهو اسم مشتق من شخصية الممثل الإذاعي حسَّان دَهْمش، والذي اختار لنفسه اسماً فنياً هو عوّاد المتَّاع أخو صَبْحة، بعد برهة لحق به حسن وهو يمسح فمه بظاهر كفه، اقترب منه صالح، اقترب أكثر، توقف فجأة وقال له:

ـ ألم تترك عاداتك القذرة يا ابن العم؟

ـ عسى ما شر!

ـ لا تحاول العبث معي، رائحة العرق تفوح من فمك يا ابن العم.

ضحك حسن ضحكته المعهودة، وقال:

ـ هي كأس واحدة!

ودخل الاثنان خلسة إلى غرفة حسن، واستمر ضحكهما إلى ساعة متأخرة،مرت تلك الليلة سريعة، وبينما بقي حسن نائماً وشخيره يملأ الأجواء، كان صالح يقف في مكتب التوظيف ينتقل من غرفة إلى أخرى، يضع تأشيرة المدير وتوقيع كبير المهندسين الروس الذي رحب به بعربية هجين بين الروسية والعربية، ثمَّ أحاله

Twitter: @alqareah

إلى المهندس الروسي هايدر والذي بدوره حدد له يوماً لإجراء المقابلة قائلاً:

ـ رفيق صالخ مرخباً بك (رفيق صالح مرحباً بك)

ووقّع الملف، فشيعه صالح بابتسامة خفيفة فهي المرة الأولى التي يعرف نفسه بأنه رفيق، وصالخ مرة واحدة. ودعه صالح على أمل اللقاء، وفي طريق العودة اختلف الأمر، فالآن هو المهندس صالح. صحيح أنه خائف قليلاً فالحياة العملية تختلف عن الجامعة، ثم إن الطبقة غربة أخرى ولو أنها لاتبعد إلا ساعة عن كسرته ـ كسرة مريبط ـ مرَّ الوقت سريعاً ولكنه لم يصل إلا قبيل صلاة الظهر، دخل بيت عمه يصفر كعادته، ولكن هاله ما رأى، وجد أباه عارياً وقد غطوه بشرشف رقيق، ورائحة الشواء تملأ المكان، انعقد لسانه، فالتزم الصمت، كان العم سيلمان يمارس الطب الشعبي أحياناً ويقول انه يفعل ذلك لوجه الله، فهو لا يرضى أن يأخذ من المرضى شيئاً، وقد صب اليوم خبرته كاملة على قريبه وابن عمه، فالأقربون أولى بالمعروف كما كان يردد دائماً، وقرر أن يضع له عُطْبتين[1] وقال مخاطباً صالح وابنه حسن:

ـ أنتم المتعلمين لا تؤمنون بأهمية العُطْبة، هذه النار في رأس اللفافة تخلّص الجسم من الأمراض، قاطعه صالح متجرئاً، ولكنك حرقت هذا المسكين ورائحة جلده تزكم الأنوف.

(1) العُطْبة: علاج شعبي بالنَّار وذلك بوضع لفافة محترقة على موضع الألم.

Twitter: @alqareah

- ستترك أثراً بسيطاً ولكنه سيشفى بإذن الواحد الأحد، وستزول تلك الآلام التي يشتكي منها، كان الحاج يكتم أنينه، ويداري آلامه، وهو يعضُّ على أطراف جمدانته بقوة لا مثيل لها، اعتصر الألم قلب صالح، وأخذ يردد:

- لماذا دائماً فرحتي لا تكتمل؟ إنها دورة الألم التي تحيط بنا، وأخذ يمسح جبين والده بيده، واقترب منه مقبِّلا رأسه. فتح عينيه، وضغط على يده، سقطت من عينيه دمعة ساخنة فيها عتب ولوم وكأنه يقول له:

- البلد فيها أطباء، ألا يكفي ما يعيش فيه الناس من نار الفقر والحرمان، التقت نظرات العم سليمان بنظراته ففهم العم اعتراض المهندس صالح، فقال له:

- إي نعم البلد فيها أطباء، كثير من الناس راجعوا الدكتور عبدالسلام[1] والدكتور جاسم[2] ثم عادوا إليّ..

في غمرة هذا الألم لم يلاحظ صالح غياب والدته وأم حسن، حتى سمع جلبة في الخارج فقد عادت المرأتان توًّا، لاحظ أن أمه تغطي عينيها بقطعة قماش بيضاء، فبادرها مستفسرًا عن السَّبب، سكتت أمُّه، وساد الصَّمت قليلاً، إلى أن قالت أم حسن:

---

(1) الدكتور عبد السلام العجيلي الطبيب الأديب المشهور.

(2) الدكتور جاسم العلوش: من قدامى أطباء الرَّقة - المدينة السُّورية - (يرحمهما الله).

Twitter: @alqareah

ـ والدتك تشتكي من ضعف في بصرها وألم في عينيها قاطعها صالح:

ـ ومن منا لا يشتكي من عينيه؟ فالتراخوما[1] مستوطنة في منطقتنا أكثر من الشرطة.

ـ والله يا بني لا أعرف عما تتحدَّث، ولكن حبَّابتك[2] سارة (أم الواجعات) عندها العلاج الشافي.

ـ وماذا فعلت بعيني أمِّي يا عمَّة؟

ـ أدخلت لسانها في عينها وأخرجت كلَّ الواجعات من بقايا التِّبن والغبار. أحسَّ صالح بالصَّدمة ولكنه عضَّ على ألمه، كان صالح مزيجاً من الألم والأمل وكان يقول لنفسه:

ـ يا صالح ها أنت ذا تنضج سريعاً على نار العُطَب ونار التَّراخوما ونار أم الواجعات ونار المساعد سعدو رئيس المخفر، ومع كل هذا السَّواد هنالك السد والمكتب الهندسي، ومرحباً بالرفيق صالح، وسيَّارات المشروع الكبير. وسكن المهندسين العرب وإلى جوارهم الرُّوس، عالم تتعانق فيه الألوان إلى نهاية المدى.

---

(1) التراخوما: مرض عيني منتشر في ريف الرقة يسبب حكةً في العين والتهابات في الملتحمة والجفن.

(2) الحبَّابة: الجدة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

8

التَّحَدِّي

رائحة البخور تملأ المكان، وضوء ((اللُّكْس))[1] في وسط الحلقة يجذب أنواعاً من الحشرات والفراشات لا تُعدّ، خيالات وظلال تنعكس على الجدران لوجوه نصفها مظلم ونصفها الآخر مضيء، تتداخل الأصوات في إيقاع رتيب في أول الأمر ولكنه يعلو مع الوقت، أله، أله، وحّدوه. الرجال في مقدمة الحلقة والنساء في الخلف، تتحرك صدورهم للأمام والخلف بحركة متناسقة، لا أثر للدفوف ولا لأيِّ آلة إيقاع، أصوات بشرية متداخلة، والشيخ عبد الحق النقشبندي يقودهم بصوته الجميل مردداً تلك الأناشيد

(١) اللُّكْس: مصباح يعمل على الكاز.

Twitter: @alqareah

الحماسية مبتدئاً بـ يا برق الشام بلغ سلامي ويرد عليه الإخوان والأخوات. يقف أحدهم ويطلب إيقاف النشيد، يستفهمون منه عن السبب، فيشير بيده إلى الرجل الذي يجلس في آخر الصف ولا يشارك في الأناشيد قائلا كلمة واحدة:

ـ (العريضي)[1]!

ينسحب الرجل بهدوء رغم الغضب الذي يتطاير شرراً من عينيه.

تعود الأصوات من جديد، ويعود الشيخ عبد الحق لقيادة الحضور وهو يتمايل للأمام والخلف والعرق يتصبب من جبينه، فتسقط طاقيته بعد أن اشتد عليه الحال، فتقفز أم صالح إلى وسط الحلقة لتأخذ الطاقية وسط ذهول الحاضرين، لتُلبسها الحاج جاسم على نية الشفاء، فيعود الإخوان والأخوات لما كانوا فيه، ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان، فقد بدأ صوت الدفوف يعلو من الحي القبلي، وبيلان يفصل بينهما، ورغم البعد إلا أن الصوت بدأ يرتفع ويغطي على حلقتهم، فقبلوا التحدي واستمروا في النشيد.. وعلا الهمس بين النساء خصوصاً.

ـ ألم يرق لهم أن تمرَّ هذه الليلة صافية لنا؟

علا صوت الدفوف، وبين الفينة والأخرى يسمع البعض:

ـ يا شيخ عبد القادر مدد، مدد!

---

(1) العريضي: أي المعارض وهي إشارة إلى من ينتمي إلى طريقة أخرى.

Twitter: @alqareah

ولكن الصوت يأتي من الحلقة المقابلة إلى أن قام الشيخ عوض وقال:

- يا إخوان هذه الليلة هي الليلة الكبيرة، صحيح أن إخواننا النقشبندية [1] أرادوا مساعدة الحاج جاسم، ولكنهم أيضاً أرادوا التحدي، فليكن لهم ما أرادوا، فسيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني رأس العارفين وسيد أهل الحكمة، وأنتم قد شربتم من (سقوته) وتضربون في جلد الرفاعية، فأروهم الليلة ما عندكم فأشعلت النيران ـ والحطب اليابس كثير وفي كل مكان ـ فتحول مادون بيلان جنوباً إلى نهار، وسمعت خشخشة الدفوف فوق النار ليجهر صوتها وارتفعت الإيقاعات عالياً، ولكن ارتفع صوت المنشدين، يستحثهم الشيخ على رفع الصوت، مدد، مدد يا شيخ عبد القادر، فيقترب شاب ضئيل البنية من الشيخ، يجثو أمامه مطرق الرأس، وكأنه يستأذنه في أمر ما. يمسح الشيخ على صدره، فيقفز كالمهر وسط الحلقة يعلو النشيد ونقر الدفوف، يعلو الصوت، يغمض عينيه يسند الشيش الذي استلَّه من تحت ثيابه على الأرض وينادي مدد يا أهل المدد، فيدخل الشيش في بطنه، تضيق الحلقة ويستمر نقر الدفوف، يهدر صوت الشيخ: أالله أكبر أالله أكبر.

ينهض من مكانه بوقار، يسحب الشيش من مكانه، ويمسح على المخرج والمدخل. عالمان مختلفان مؤتلفان، فشمال بيلان

---

(1) النقشبندية: طريقة من طرق الصوفية تنتشر في ريف الرقة.

Twitter: @alqareah

ليس مثل جنوبه، وليل الكسرة موزع بين هذين العالمين، وأهل الأرض يلونون علاقاتهم بالسماء بما يشتهون، والمهندس صالح والأساتذة هنالك على صعيد آخر يشربون الشاي بهدوء ولا يرون إلا النار في الجنوب ويسمعون:

يا برق الشام في الشمال، وهم مقرفصون وسط بيلان، وكأنهم يتحفزون لأمر ما.

Twitter: @alqareah

9

تَمرُّدٌ في القارة السَّابعة

((في كل دقيقة نغمض عيوننا نفقد ستِّين ثانية من الثُّور))

غابرييل غارسيا ماركيز

كان مدرِّس الجغرافيا في إعدادية مريبط الأستاذ حمد يعدِّد قارَّات العالم ثم توقف قليلاً وأسند يده إلى السبُّورة ـ وهو لاعب كرة السَّلة المعروف ـ وزفر زفرة جعلت عيون طلابه تفتح عن آخرها . . . وسأل بصوت خفيض:

وهنالك قارّة سابعة أتعرفون ما هي؟

لم يتلقَّ إجابة من أحد فقال:

مريبط!!

بينما كان أحمد ابن المختار يجوز الردهة متجهاً إلى مكتب مدير الإعدادية الذي استقبله بحرارة، كان يفكر في القارة السابعة

Twitter: @alqareah

والأستاذ حمد وسنوات مرت على تخرجه في هذه الإعدادية، والآن تيقَّن أنَّه يعيش في هذه القارة، فدمشق اليوم تشهد تحركاً غير مسبوق في هذا الصباح التشرينيِّ من العام 1970م وهو يتبوأ منصب أمين الفرقة الحزبية في هذه النَّاحية، ولا يعرف ما الذي يحصل؟ لحظات بعد خروجه من مكتب المدير، فُتحت أبواب الإعدادية وخرج الطلاب والمدرِّسون في صفوف كانت منتظمة ثم تداخلت والتقت مع جموع تلاميذ ابتدائية (رفعت الحاج سري) القريبة، وبدأت السيارات والتراكتورات تصل تباعاً إلى ساحة المخفر من قرى الحويش وحلاوة وشمس الدين والسلام والجعابات والواسطة والحوائج. . .

وبدأ الهتاف على استحياء ثم تعالت الأصوات وبدأ الحماس يشتعل، الرفيق أحمد كما يناديه الجميع لم يظهر وسط هذه الحشود، ولم يرَه أحد مطلقاً، تداخلت الأصوات وحُمل البعض على الأعناق، يسقط، يسقط، يسقط، يعيش، يعيش، يعيش، حتى مدرّس اللغة الإنكليزية إسماعيل أبو الريش الفلسطيني ابن مخيم تل الزعتر اقتحم الجموع وبدأ صوته يلعلع؟

ـ عاشت فلسطين حرة عربية

يسقط الفاشست، أجابته الجموع: يسقط، يسقط والتفت الكثير من الطلاب والفلاحين بعضهم إلى بعض يسألون عن هؤلاء الفاشست من هم؟ فقال بعضهم:

أظنه يقصد الشرطة، فبدأت الحجارة تنهال على المخفر، بينما

Twitter: @alqareah

مدير الناحية النقيب فيصل أصدر أوامره للشرطة بالاحتماء بالمخفر وإغلاق الأبواب، وعدم الرد على المتظاهرين فتقدمت تلك الكتلة البشرية إلى البوابة الرئيسية، وعلا هتافها وزادت حجارتها، وحدة، حرية، اشتراكية.

ما بدا غريبا أن الشرطة كانوا يراقبون الناس من خلف الزجاج المهشم، وربما سُمعت قهقهاتهم، عند ما بدأ تلاميذ المدرسة الابتدائية بإطلاق أصوات (قيق، بقيق.....) وكلما شاهدوا رئيس المخفر، يعيدون هذه الأصوات ويحركون أيديهم بطريقة ما، تشبه حركة جناحي الطائر، ويرددون:

أبو الدجاج اليوم يومك.. لكن ما حصل بعد ذلك لم يكن بالحسبان، انقسمت المظاهرة إلى قسمين: الأول بقي محيطاً بالمخفر والآخر اتجه جنوباً، واستقر أمام السوق الجنوبي تحديداً أمام مطعم حميد التادفي، عندها خرجت صور جديدة ويافطات معدّة على عجل كتبت بخط رديء، لكنه مقروء:

((ما أُخذ بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة)) عاش زعيم الأمة العربية، عاش جمال عبد الناصر، وخلال لحظات ولدت تظاهرة أخرى، وتصدرت صور الزعيم أبي خالد واجهات صالون الحلاقة، والمطعم، ومكتب البريد.. فدب الحماس في الرؤوس، وانبرى رجل طويل، أقنى الأنف، يرتدي ثوباً يظهر من تحته شروال حلبي، ينتعل حذاءً دقيق المقدمة، قفز كهرٍّ جبلي إلى سطح المطعم وهو يحمل سكينا للجِزارة فناداه بعضهم:

Twitter: @alqareah

أهلا بأبي محمود، لكنه لم يلقِ بالاً لهتافهم، فسكت الجميع، وساد صمت مُريب، فأخذ يرقص وسكينه يلمع بين يديه، ثم ينثني راكعاً، فساجداً على ركبة واحدة، ويردد: أنا نيصري، أنا نيصري، فردد خلفه الحضور:

أنا ناصري، أنا ناصري

عاش الزعيم جمال عبد الناصر، عاش، عاش، فتحركت الجموع إلى المقبرة نحو قبر معيّن، حتى إذا وصلت طلائعها إلى مبتغاها، تقدم رجل كبير الجثة، يرتدي بزة رسمية وقال بوقار: اليوم يومك يا أخي، ها نحن قد عدنا فاهنأ في قبرك، فصرخ الجميع:

حرية، اشتراكية، وحدة، كان الرفيق أحمد يرقب الأحداث ويتابع، ويحاول أن يجري اتصالات من هاتف مدير الناحية ـ وهو الهاتف الوحيد في المنطقة كلِّها ـ وقد كان معطلاً طوال النهار عادت سيارة اللاندروفر التابعة للفرقة الحزبية في آخر الليل إلى بيت المختار، ترجّل أحمد منفرج الأسارير، وفي الموعد نفسه وبفارق يوم واحد، خرجت التظاهرة نفسها، وفي المكان عينه، ولكن بهتافات موحدة، والمحمول على الأعناق هو الرفيق أحمد وصوته الحماسي يشقُّ الآفاق، بينما الشرطة يحرسون التظاهرة، بل ربما شاركوا في الهتاف عاش،عاش، عاش، الآن يستطيع الرفيق أحمد أن ينام، وقبل أن يستغرق في نومه، تذكر أن الأستاذ حمد ليبرهن على نظرية القارة السابعة، ذكر أن الرئيس الأمريكي

Twitter: @alqareah

كينيدي[1] قد احتاج خبر اغتياله لعشرين دقيقة؛ ليعرف العالم أجمع به، بينما لم يصل لمريبط إلا بعد عدة أيام! وتذكر أن أحد الأشقياء في الصف، سأل مستغربا:

ـ هل تقصد حقاً يا أستاذ حمد أن الرئيس الأمريكي كيندي قد اغتيل فعلاً؟

نام الرفيق والابتسامة ما تزال مرسومة على محيَّاه!!

(1) جون كيندي أو جاك كيندي: هو الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة، اغتيل / 22/ تشرين الثاني / 1963في دالاس (تكساس).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

10

اللجنة [1]

عادت مضافة المختار أو (الأوضة) كما يسمونها إلى الصَّدارة، وأصبحت التَّعليلة[1] شبه يومية فيها، وأخذ الرفيق أحمد يتصدر المجلس، فوالده أصبح قليل الحضور وصار يردد أمام ضيوفه:

البركة بالابن أحمد، فيرد هؤلاء:

والنِّعم، فترتسم ابتسامة عريضة على محيَّاه، ثمَّ ينصرف إلى بيت زوجته الثانية الزوجة الصغرى، ومما عزَّز مكانته مؤخَّراً ذلك الدَّور الكبير الذي لعبه في إنقاذ الكثيرين من أبناء القرية الذين

(1) التعليلة: هي السهرة أو جلسة السَّمر.

Twitter: @alqareah

حاصرهم الفيضان الكبير لنهر الفرات، إذ داهمتهم المياه فجأة في بداية الرَّبيع وهو وقت غير متوقع، أحاطتهم مياه النهر الذي تحوَّل إلى نهر من الدَّم، فقد تحول ماؤه إلى طين أحمر جلبه من الأراضي التُّركية محطِّما كلَّ ما يقف في طريقه من الشَّجر أو بيوت القصب التي تجاوره وغدا خلال لحظات وحشاً كاسراً مزمجراً يدمِّر من يقف بوجهه، فلجأ النَّاس إلى الجزر الصَّغيرة أو الحوائج ـ كما يسمُّونها ـ ومما زاد الأمر سوءًا انهمار الأمطار بغزارة غير مسبوقة حتى كاد النَّاس يقتربون من الهلاك، عندها انبرى الرفيق أحمد لنجدة أهل قريته، وأسرع إلى مكتب مدير النَّاحية ليجرى اتصالاته بالقيادة طالباً الغوث، ساعات قليلة كانت المروحية العسكرية تحوِّم في سماء الكسرة، حطَّت في ساحة قريبة، ليلتحق أحمد بطاقم الطَّائرة مرشداً وموجِّهاً، لم تغب شمس ذلك اليوم إلا بعد أن أُنقذ الجميع، وعادوا إلى بيوتهم، لتصبح قصة (الهليو كبتر) حديث أهل القرية لسنين قادمة، وليتوَّج الرفيق أحمد ابناً باراً وبطلاً قومياً.

في الآونة الأخيرة كثرت سيارات الحكومة أمام أوضة المختار حتى الأطفال في شوارع الكسرة، كلما رأوا سيارة، يبادرون السَّائق وقبل أن يكمل سؤاله، يشيرون إليه بمتابعة الطَّريق عبر بَيْلان إلى آخره، ثم عليه أن ينحرف يساراً، ولكن هذه المرة السَّيارات كثيرة، وفي مقدمتها سيَّارة مختلفة من حيث اللون والحجم، الضُّيوف مهمون بالتَّأكيد، ساعات واجتمعت القرية رجالها وشبابها، رحَّب أحمد بالضُّيوف وقدَّم أحدهم بقوله:

الرفيق جورج من القيادة في الشَّام حضر إليكم مع وفد من

Twitter: @alqareah

رفاقنا، وهو سيشرح ما يريد، استوى الرفيق جورج في جلسته، وأصلح وضع الوسادتين اللتين وضعتا له، ورغم تبرُّمه بطريقة الجلوس على الأرض، مسح صلعته بمنديل قماشي، فقد بدأ العرق يتصبَّب منه وقال:

أشكر الرفيق أحمد ابن هذه القرية الذي أثبت صدقه وولاءه للثَّورة ولمسيرتها الجديدة، وعلى يديه وأمثاله من أبناء الطَّبقة العاملة سيبنى الوطن. يا إخوان تعلمون أن القيادة بدأت تعدّ العدَّ العكسي لإنهاء تشييد سد الثَّورة، فقال حسينوه من وسط الصفوف تقصد سد الطَّبقة، نظر إليه الرجل ذو الصَّلعة، سكت برهة، ثم تابع:

وهذا السَّد عند اكتماله سيشكِّل بحيرة كبيرة تزيد على الثمانين كيلاً «كيلومتراً»، مما يعني أن هذه القرى ستُغمَر بالمياه، مرَّة أخرى علق حسينوه:

رحنا، انهدم بيتنا وربّ الكعبة، نظر إليه هذه المرة أحمد، الرفيق أحمد فأشار إلى فمه، وقد غطَّاه بأصابعه، ففهم أحمد وطلب من الرَّفيق جورج المتابعة، فأكمل:

وهذا يتطلَّب تضحية، ولكن القيادة قرَّرت بناء مزارع للدَّولة على أن تكون نموذجية، الماء، والكهرباء، والمدارس، لم يستطع حسينوه الوفاء بوعده، فنهض من مكانه وقال: الحمد لله الحكومة حولتنا إلى حضَر، ويمكن بكرة تشوفوني (بكرافته)، ولم ينتظر الرد، فخرج بإرادته، فانفجر الضَّحك في أكثر من مكان، أعقب

Twitter: @alqareah

ذلك هرج ومرج، هدد البعض بالمقاومة لهذا المشروع، وقال الآخرون: سيموتون في دورهم ولن يصبحوا مغمورين.

حاج طريف بكى بكاءً مُرًّا، وكانت المرَّة الأخيرة التي شوهد فيها في مجلس عام. الرَّفيق أحمد تكلَّم بثقة شديدة نحن رجال الثَّورة، وسنكون جنداً لها، ونحن على استعداد للتضحية، فتمتم البعض: أي تضحية، وأي بطيخ، والله لو أعطونا (لاندروفر) في خدمتنا وصرنا رفاقاً؛ لبعناها بقشرة بصلة..

Twitter: @alqareah

11

اللَّجنة [2]

في آخر مرة زار فيها الرفيق أحمد مكتب الرجل الكبير في المحافظة وضعه في صورة الوضع، والصعوبات التي تواجهه مع أهله وأقاربه وصعوبة إقناعهم بفكرة الرحيل، وحتى السينما التي أرسلوها، لتعرض أشرطة تتضمن مخططات القرى، والخدمات المتوفرة فيها، لم يجتمع لمشاهدتها سوى الأطفال، وقاطعها الرجال والنساء، ولم يقبل أحد أن توضع الستارة البيضاء على جدار بيته، فما وجدوا إلا جدار المدرسة،

وأخذ الناس يتهكمون على الأبقار الهولندية التي ظهرت بالفيلم، وأطلقوا عليها أسماء لا يستطيع أن يذكرها، سمع الرجل

Twitter: @alqareah

الكبير كل هذه المحاذير باهتمام شديد، لكنه فجّر قنبلة أخرى بوجه الرفيق أحمد، عندما أخبره أن القيادة قد صرفت النظر عن المشروع الرائد وهو الاسم الذي أطلق على إعادة توطين المغمورين.

قفز الرفيق من كرسيه، وقال بحدَّة: وهل تريد القيادة رميهم في البحيرة؟

طلب منه الرجل الكبير الهدوء واقترب منه، وخفف لهجته إلى ما يشبه الهمس:

إننا ندرك أنَّهم فلاحون، يحبون الأرض؛ لذلك سيواصلون هذا الحب، وستراهم يعيدون بناء حياتهم بأسرع مما تتصور!

ـ لكن الذي لا تعرفه أنَّ هؤلاء الناس كالسَّمك إذا أخرجته من حضن هذا الفرات سيموت.

ـ مالك يا رفيق أحمد؟ أنت معنا أم ضدنا! وهل نسيت أنني فلاح ابن فلاح؟

ـ معكم ومع أهلي وأقاربي.

جلسات عديدة، اجتماعات، مؤتمرات في المحافظة والعاصمة، مراسلات دراسات، اقتنع أحمد أن هذا الأمر نهائي ولا يقبل الجدل، فعاد مع مجموعة كبيرة من المهندسين التابعين لمؤسسة السدِّ وعدد من رجالات القيادة السياسية، سيارات كثيرة، ومرة أخرى قابلوا الناس، وغيروا شرحهم، وسُحبت تلك الصور والإعلانات وأوقف عرض الأشرطة السينمائية وفي كل مرة يقف

Twitter: @alqareah

حسينوه، ويطالب اللجنة بالأبقار الهولندية المرقطة التي تعطي أربعين لتراً من الحليب، ويرفقها بغمزة من عينه للأساتذة، فيختلط الضحك بالبكاء، إنه أشبه ما يكون باقتلاع شجرة من جذورها ربما تبقى مخضرّة لساعة، ولكنها لابد آيلة إلى الجفاف والموت.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

12

مِيـرْنَا

«في الحقيقة لا يتقدَّم النَّاس في السِّنِّ
إلا عندما يتوقفون عن الحبِّ»

غابرييل غارسيا ماركيز

لم يعد المهندس صالح يتردد كثيرا على قريته سوى تلك المرة التي رجع فيها على عجل، ليتقبل العزاء في والده حسب الأصول، وقبل أن يصعد إلى البوسطة وضع يده على رقبة حسينوه، وقال له:

يا حسين نحن إخوة وكبرنا في بيت واحد والحاج جاسم والدنا جميعا، والدتي ونجمة أمانة في رقبتك ريثما أتمكن من ترتيب أموري في الطبقة، وأستلم السكن في حي المهندسين، غصّ صالح بدموعه، ولكنه تماسك فوضع حسينوه يده على شاربه وقال:

ـ أخي صالح الحاجّة ونجمة شعرة في شاربي، ولا تهتم!

ما عدا ذلك ظل صالح يأتي بزيارات خاطفة، وفي كل مرة

Twitter: @alqareah

يأتي بعلب حليب مجفف ومعلبات وغيرها، ويقسمها بالتساوي بين أمه وأخته المطلّقة ويرسل حصة حسينوه إليه، وكلما سألهما عن أحوالهما، تخبرانه بأن الرجل لا يقصر أبدًا في خدمتهما، وتسيير أمور الزراعة باستئجار عمال من أهل القرية، هذا ما تقوله الأم بينما تلتزم نجمة الصمت، متفادية التقاء عينيها بعيني صالح، ولكنها تقول له:

ـ يا أخي تغيرت كثيراً منذ أن توظفت في الطبقة، فيردّ: طبعاً، هذه بركة الهندسة وتضحيات الوالد ـ يرحمه الله ـ ويقفل راجعاً وكأنه لا يستطيع التأخير، وعندما يصل، يغير ملابسه ويتوجه للحي الأول فهنالك قصة أخرى.

في الأشهر الفائتة عيّنته إدارة المشروع مع المهندس السوفييتي هايدر والذي رحب به، فهو كان قد عرفه من خلال المقابلة الخاصة بالتعيين، ومازال يذكر لقاءه الأول، تعمقت معرفة صالح بهايدر، مما سمح له بالسؤال عن أمور شخصية، قال له مرة:

سيد هايدر فضحك الأخير وطلب منه أن يناديه الرفيق هايدر، فأعاد السؤال رفيق هايدر لا تبدو عليك ملامح الأوروبيين فلست أشقر الشعر ولا أزرق العينين، فكاد يغمى عليه من شدة الضحك، وقال له: رفيق صالح أنا من أذربيجان واسمي حيدر نزاروف درست في موسكو، وأنت اليوم ضيفي فلدي مناسبة خاصة، حاول صالح الاعتذار، لكن أصر، فلم يجد بدًّا من قبول الدعوة.

كانت السهرة مقتصرة على هايدر وصالح وامرأة خمسينية طويلة شقراء، وقد قصّت شعرها بطريقة تكشف جبينها العالي

Twitter: @alqareah

وعينيها المتعبتين، وبعد دقائق دخلت فتاة عشرينية بيضاء البشرة، وقد عقصت شعرها فبدت تحت مصباح غرفة الضيوف كأميرة من القرون الوسطى، تقدمت من صالح فسلمت عليه، فقدمها المهندس هايدر:

ـ ميرنا، ابنتي

ـ تشرفنا، أهلاً وسهلاً.

ـ مرحباً بكم ضيفاً كريماً

قالت ذلك بلغة عربية فصيحة دون أن تهمل الحركات والضبط الصحيح للمفردات، أدرك والدها دهشة صالح، فلم يتركه طويلاً في حيرته، وأكمل:

ـ ميرنا طالبة في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق ضمن خطة التبادل الثقافي وهي مبتعثة من معهد بوشكين بلينينغراد[1]

استمرت تلك السهرة إلى وقت متأخر فانصرف هايدر وزوجته إلى النَّوم وتركا صالحاً وميرنا في أحاديث لا تنتهي، وخلال إجازة الصَّيف، استمرت هذه اللقاءات وبصورة شبه يومية، حتى أصبح منظر صالح وميرنا في الحي الرُّوسي مألوفاً، وكذلك المسبح المخصَّص للرُّوس، بعدما رتَّب المهندس هايدر ذلك مع إدارة المنشآت الرُّوسية.

ما أذهل صالح هو ثقافة ميرنا الواسعة، فقد حدثته عن المتنبِّي

(1) لينينغراد: الاسم السوفييتي لمدينة سان بطرسبرغ الحالية.

Twitter: @alqareah

ونزار قبّاني أكثر مما حدثته عن بوشكين ودويستوفسكي، لقد بهرته ببراعتها على البيانو، فعزفت لباخ، وهايدن، وتشايكوفسكي، مما حدا به أن يطلق عليها لقب:

(الكونتيسة البروليتارية) [1] وقد التصق بها هذا اللقب حتى بعد عودتها إلى لينينغراد، وفي الوقت ذاته زادت شهية صالح للقراءة، وخصوصاً تلك الكتب التي يستعيرها من ميرنا، وفي الوقت ذاته عاد لهواية قديمة كان قد هجرها منذ زمن وهي الرَّسم وتحديداً رسم الوجوه ـ البورتريه. في زيارتها الأخيرة إلى سكنه المؤقت دهشت من اللوحات التي علّقت على جدار الغرفة، قالت:

ـ صالح، ما كل هذه الوجوه المزدحمة في غرفتك؟

ـ هذه لبعض ممَّن عرفتُ في هذه الحياة

ـ ولِمَ تركّز على الوجوه؟

ـ الوجه يا ميرنا مرآة الجسد، ووجوهنا خرائط لكل مراحل حياتنا، ففيها أَمارات الحزن، والانكسار، والفرح، والنجاح، والفشل... وحتى الحب والكره.

ـ لم يبقَ يا صالح إلا أن تكتب الشعر!

ـ لا فرق بين اللوحة والقصيدة، اللوحة رسم باللون، والقصيدة رسم بالكلمات.

---

(1) الكونتيسة البروليتارية: الأميرة الشيوعية (Countess) سيدة نبيلة زوجة (الكونت).

Twitter: @alqareah

ـ هذا بالضبط ما يقوله شاعركم نزار قبّاني

ضحك صالح وغمز بعينه ميرنا وهمس وهو يضغط على يدها: أراك معجبة بهذا الشاعر البرجوازي فصدرت عنها ابتسامة ماكرة.

اقتربت من اللوحات أكثر، دقّقت في ملامح الوجوه، قالت: صالح عرّفني بهذا الوجوه، ردَّ عليها:

ـ لا أعتقد أنهم يقعون في دائرة اهتمامك!

وتحت إلحاحها، اتفق الاثنان أن تقوم ميرنا ببسط ما تراه كما يفعل نُقَّاد الفن، ويقوم صالح بالتَّعريف.

اللوحة الأولى:

ـ عينان غائمتان، تجاعيد كثيرة، وجه فيه الكثير من القناعة والقليل من الاحتجاج، الهالات السود تحت العينين تخفي متاعب لا حدود لها.

ـ هذه حبّابتي[1] وردة، إنها (الصَّرّارة)[2] التي ولَّدت معظم نساء القرية، وكل هذا الجيل من الأولاد والبنات ولدوا بين يديها. لديها من الحب ما يكفي لكل سكان لينينغراد، وقد تنام أحياناً دون عشاء، ومع ذلك فهي راضية قانعة.

---

(1) حبَّابتي: جدتي، وتقال لكل امرأة كبيرة في السن تأدباً.

(2) الصَّرارة: القابلة، المولدة.

Twitter: @alqareah

اللوحة الثانية:

ـ شاب في ريعان العمر، عيناه ممتلئتان تصميماً، شارباه الكثان فيهما فتوة ورجولة، حليق اللحية، يتطلع نحو البعيد تقاطيع وجهه حادّة كأنها منحوتة من صخر.

ـ هذا سعيد أول شهيد في قريتنا، استشهد في حرب تشرين الأول ـ رمضان/ 1973م، أتوا به في كيس جمعوا أشلاءه من مسافات بعيدة، دفن في المقبرة تحت ظل الرصاص والهلاهل[1] وهو عزَب.

اللوحة الثالثة:

عينان صغيرتان غائرتان، ملامحه دقيقة، أنف حادّ ووجه متطاول، فمه كبير قياساً إلى دقة ملامحه فيه ذكاء، وربما شيء آخر، عضلات وجهه تتحفز لشيء ما.

وقف صالح كثيراً عند هذه اللوحة، بدا لو أنه لا يريد الكلام لكنه تراجع، وقال:

ـ هذا سالم أول مُخْبِرٍ عرفناه في القرية، كان معنا في المدرسة، وكنا نسمِّيه

(الفاسُود)[2] لأنه يخبر المدير بكلِّ عمل نعمله.. واستغرق صالح في ضحكته التي تشبه البكاء طويلاً، فجاملته ميرنا في البداية، ولكنها توقفت وطلبت منه أن يشرح السبب، فقال:

---

(1) الهلاهل: الزغاريد.

(2) الفاسُود: المخبر، النمَّام، الجاسوس.

Twitter: @alqareah

طيّب، طيّب، لك هذا

ـ قلت لك إنه (فاسود). مرَّة رسمتُ وجه المدير على باب المرحاض من الدَّاخل، وزاد أحد الطلاب تحت الرَّسم عبارات أخرى، فوجئت بالمدير صباحاً يطلبني أمام الطَّابور، ويقول:

ـ ما شاء الله فنان يا ابن حاج طريف، فأُغلق علي، ولم أحر جوابا، وعندما طلب الفلقة، كان سالم أول المتطوعين لرفع ساقيَّ لتلقّي الضَّرب، ولكنَّ المضحك ليس هنا، تدخلت ميرنا تستحثه على المتابعة.

ـ وماذا بعد؟

ـ المضحك أنهم عندما رفعوا رجليَّ انكشف عني الثَّوب فوجدت العصا تسقط من يد المدير، ويشيح بوجهه عنِّي، ربما رأيت ما يشبه الدُّموع في عينيه.

ـ لم أفهم؟

ـ يا ميرنا، لم أكن ألبس سروالاً، لأننا نعدُّ هذا تَرَفا لا مبرر له، السِّروال يا ميرنا رفاهية!!

جلست ميرنا على كرسي صغير، ولم تكن متأكدة من أن صالحاً يضحك، أم يبكي في تلك اللحظات. اقتربت منه، أمسكت برأسه فدسَّ أنفه في صدرها، وكأنَّها أول مرة تغمره رائحة أنثى. غيمة من العطر الأنثوي تعبر سماءه، ليست كأيّةِ أنثى إنَّها (الكونتيسة البرولتيارية).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

13

الخال آرمين

يبدو أن ميرنا لا تخفي عن والدها شيئاً، فقد بادر صالحاً في المرة الأخيرة قائلاً:

- لم أكن أعرف أنك فنان، ظننت أنك اكتفيت بالهندسة فأجابه بحياء شديد:

- ميرنا تبالغ قليلاً، الأمر لا يتعدى (إسكتشات) بسيطة، أوثّق فيها لوجوه من أراهم، هو نوع من الذاكرة البصرية، يعني أرشيف شخصي، وإن كنت موهوباً فهذه من ميراث الوالدة فأهلها مُحبُّون للفنون.

ضحكت ميرنا، قاطعته:

Twitter: @alqareah

ـ يعني ربما أصبحنا ذات يوم جزءًا من هذا الأرشيف؟

ـ (يهز صالح كتفيه) ليقول بثقة: ربما!

يضع المهندس هايدر الشاي أمامه، ويرشف رشفة صغيرة، ويقول: كدت تنسيني ما أردت قوله. في الصباح تودّ ميرنا زيارة حلب ليوم أو اثنين فهي مولعة بهذه المدينة، وأنا منشغل في مكتب الدراسات الهندسية ولا أستطيع مغادرة الموقع، وفكرت في مرافقتك لها، فأنت خريج جامعة حلب وعشت فيها سنوات عديدة، ها... ماذا تقول؟

كانت المفاجأة غير متوقعة، لم يتصور أن ذلك ممكن. صمت، طال صمته، فقال المهندس هايدر:

ـ إذا كنت لا ترغب، تستطيع ميرنا تدبُّر أمرها.

أجابه كمن هو متأكد:

ـ لا.. لا مشكلة يسرني ذلك، وأقدّر ثقتك، سأكون هنا عند السابعة صباحاً.

بعد العاشرة بقليل ميرنا وصالح في بهو الفندق الكبير، أثاث ردهة الاستقبال يوحي بأن المكان راقٍ، والمفروشات الخشبية المعشَّقة بالصدف تترك انطباعاً بالدهشة والدفء، لكن الذي أدهش ميرنا حرارة استقبال تلك الفتاة الثلاثينية التي تقف خلف مكتب الاستقبال ونداؤها صالحاً باسمه. لم تعلّق على الأمر، لكنها جلست على طرف الكرسي الفخم الذي وضع بطريقة لا تخلو من الحِرْفية أمام المكتب، ومما زاد في دهشتها سؤال صالح الفتاة عن الخال آرمين، أوَ مازال مكتبه على اليسار؟

Twitter: @alqareah

لم ينتظر صالح جوابها، بل أمسك بيد ميرنا وجرَّها عن الكرسي بمرح طفوليٍّ، فتبعته مرغمة، ولجا المكتب، رجل ضخم البطن، يضع نظارة للقراءة بسلسلة ذهبية تتدلى من جانبيها، يستر صلعته (ببيريه) زرقاء. طرق صالح الباب بعد أن دخلت ميرنا قبله ولم تثر انتباه الرجل. رفع رأسه وأبعد النظارة عن عينيه: صالح، أهلاً، والله زمان، يعني إذا صرتي مهندس تتكبّري على خالو آرمين[1].

كل ما حصل يحتاج إلى تفسير من قبل صالح لميرنا. إنها أشبه بالأحجية، أو لعبة (بازل)، أدرك ذلك تماما، فقال:

خالو أنت مشغول، وأنا أعرف طريقي تماماً، وهذه ميرنا صديقتي وابنة صديقي، نحن سنكون في الصالون، فردّ الرجل:

ـ هذا فندقك يا صالح، تصرف كما تحب.

شرب صالح كأس الماء البارد الذي رافق فنجاني القهوة اللذين قدِّما لهما، أمسك بيد ميرنا وقال:

هذا فندق بارون وهو من أقدم فنادق حلب، تأسس عام 1909م، وأطلقوا عليه في البداية اسم (أرارات)، قاطعته ميرنا، وماذا يعني ذلك؟

ـ الأرارات هو الجبل الذي نزح منه الأرمن بعد تعرُّضهم للمذابح

(1) أي: إذا صرتَ مهندسا تكبرتَ على الخال آرمين: (وهذا بحسب لهجته الأرمنية).

Twitter: @alqareah

في تركيا. سالت دماؤهم من قمة ذلك الجبل حتى وصلت إلى قريتنا.

ـ ضحكت ميرنا وقالت:

لم أعرف أنك تحمل كل هذا الإرث من الظلم!

تابع حديثه متجاهلاً عبارتها قائلاً:

سأكمل لكِ، عندما هُجِّروا من أرضهم، أو اقتلعوا منها، ظُلموا، أم لم يُظْلموا، لا أتحدث عن ذلك الآن. أدركت ميرنا أنها رشَّت ملحاً على جروح صالح التي لمَّا تندمل بعد! تداركت الموقف وضغطت على يده برفق ودفء. تابع حديثه، وصل من هؤلاء إلى قريتنا طفلان، بل مراهقان متعبان جائعان يسكن الخوف محاجرهما، لا يملكان سوى ذلك الصليب الخشبي المخبَّأ بعناية في ثيابهما. فتاة وصبي بشعر أشقر وبشرة بيضاء كالحليب، استقبلهما أهل قريتنا بالحب والتعاطف الإنساني، عاشا كما يعيش أهلنا، يزرعان، يحصدان، يركبان الحمير والخيول، أصبحا في سنّ الزواج، تزوج الشاب من بنات القرية، وتزوجت الفتاة شاباً من أهل القرية أيضاً، وأمي ـ أطال الله في عمرها ـ هي ثمرة زواج ذلك الشاب ذي الشعر الأشقر، الذي أصبح جدِّي، أظنكِ الآن عرفتِ لماذا قلتُ لصاحب الفندق المسيو آرمين، خالو آرمين، لأن من أعراف قبيلتنا أن كل أقارب الأم هم أخوال لأبنائها.

لم تنفرج أسارير ميرنا تماماً، وأطرقت وكأنها ما تزال ترى أن بعض قطع لعبة (البازل) لم تستقر بموضعها. لقد أصبح صالح

Twitter: @alqareah

خبيراً بأسلـوب تفكيـرها، فأطلق ضحكته المعهودة قائلاً:

فهمت عليكِ تسألين عن موظفة الاستقبال وعناقها الحار لي، إنها يا آنستي، سونيا ابنة المسيو آرمين، خريجة لغة فرنسية، مُضربة عن الزواج، وقد كانت زميلتي في العمل، لأن الذي لا تعرفينه أنني كنت أعمل في أثناء الدراسة بدوام ليلي في الفندق لأتمكن من تأمين مصاريف الدراسة. سرى الدفء من جديد، وعاد وجه ميرنا مشرقا، وخصوصاً عندما سمعت صالحاً ينادي:

سونيا قائلا: أمازال أبوك مظلوماً يا سونيا؟ فتجيبه:

ـ كلنا مظلومون يا صالح، نحن عائلة تتوارث الظلم ولكن لا تشتكي، وحتى لا تعود الوساوس مرة أخرى إلى قلب ميرنا، اقترب منها وهمس في أذنها

(والد سونيا اسمه آرمين مظلوميان) هل فهمت الآن؟

كانت الجولة متعبة لميرنا، لأن صالحاً يصرّ أن يمشي معظم الطريق، إضافة لكل تلك الأكياس التي خبأت فيها ما اشترته من ثياب وأحذية.. لذلك ألقت بنفسها على أقرب كرسي في بهو الفندق وفاجأته بسؤال لم يتوقعه:

ـ صالح، متى يصادف عيد ميلادك؟

ضحك كثيراً، وقال لها:

هل تفكرين في شراء هدية خاصة؟

ـ كُفَّ عن العبث، وأجبني، الله يخلّيك!

Twitter: @alqareah

ـ الحقيقة يا ميرنا لا أعرف تاريخ ميلادي، فنحن في هذه المنطقة لا ندخل سجلات الحكومة مثل أبناء المدن إلا بعد سنين من ولادتنا الحقيقية، ولا يشعر أهلنا أنهم مضطرون لذلك، فليس لهم رواتب أو تعويضات عائلية مثل موظفي الدولة،أو ربما ينتظرون صمودنا أمام الجائحات التي تدهمنا بين الحين والآخر فتقضي على نصف أطفال القرية، أي ينتظرون انتصارنا على الموت؛ لننال اعترافهم، ونستحق اعتراف السجلات بنا بعد ذلك، لذلك يندر أن تجدي أحداً يعرف ميلاده على وجه الدقة، وبعد الغمر سيضيع مكان الولادة أيضاً، وهكذا نصبح خارج الزمان والمكان!

ـ لا أعرف ماذا أقول لكَ!

ـ لا تقولي شيئاً، لقد وفرت عليك ثمن الهدية!

اعتدلت في جلستها، ثمَّ اقترب منها صالح وهو يحمل ورقتين كتب في الأولى الرقم 202 وفي الثانية الرقم 203 وباغتها بسؤاله:

ـ هل تريدين أن تنامي مع أغاثا كريستي أم مع لورانس العرب؟

ضحكت ببرود فالتعب أخذ منها كل مأخذ، لكنه أعاد السؤال مرة أخرى، فلم تجد جواباً، ووضعت يدها على جبينه، نظر إليها مستفسراً، قالت:

أحاول قياس حرارتك، لعلك مصاب بالحمّى.

لكنه تحدث بثقة تامة:

Twitter: @alqareah

ميرنا، أنا عملت في هذا الفندق خمس سنوات، وأعرف كل زاوية فيه، واطلعت على سجلاته القديمة والحديثة.

ـ المعنى؟

ـ الغرفة 203 هي غرفة الروائية آغاثا كريستي، كاتبة الرعب الإنكليزية، وربما كتبت مخطوطة روايتها الشهيرة ((جريمة في قطار الشرق السريع)) في هذه الغرفة.

ـ والثانية، ماذا تخبئ أيضاً؟

ـ الغرفة 202 هي الغرفة التي عاش الضابط الإنجليزي لورانس فيها سنين عديدة، ونحن نسميه (لورانس العرب) وعلى كل حال اختاري واحدة، لأني سأختار مضطراً الثانية، وعندها سيكتب خالو آرمين في سجل الغرفة التي تختارينها أنَّها قد أصبحت غرفة:

(الكونتيسة البروليتارية: ميرنا هايدر نزاروف)

قالت: بالتَّأكيد سأفضِّل الرُّعب على ذلك الشَّاذ، عجيب أمركم لقد جعلتم منه أسطورة، بينما أبناء جلدته يتجاهلونه، انظر إليه يعيش في بلاده نكرة مغموراً، فأطلق ضحكته المجلجلة مرة أخرى، وقال:

وأنا سأصبح مغموراً، لكنني لست شاذّاً على كل حال! وفي الحقيقة لم أستغرب اختيارك هذا!

ـ ولماذا، إن شاء الله؟

Twitter: @alqareah

ـ لأن بينكما قواسم مشتركة كثيرة، فهي عازفة بيانو مرموقة، وخجولة وتحب الاكتشاف، ألم ترافق زوجها الثاني (ماكس مالوان) في رحلة اكتشافه لمقبرة (أور) الشهيرة في العراق؟

ـ لكن لا تذهب بعيداً، فأنا لا أفكّر في الزَّواج من اثنين في كلِّ الأحوال.

دفعته فكرة الزواج إلى تغيير الموضوع بسرعة قال لميرنا:

انظري من خلال هذه النافذة الكبيرة إلى الشارع العريض المواجه لنا إنَّه شارع بارون ذلك الطريق الذي يقسم المدينة إلى عالمين، إن لكل مدينة يا ميرنا بيلانها، ففي قريتنا بيلانُ، جسرٌ بين عالمين، وكثيراً ما سألت نفسي من أين لأهلنا هذا البيلان؟ حتى عرفت أنَّ بيلان ممرٌ شهير في تاريخنا يفصل بين جبلين هما الجبل الأحمر في الجنوب وجبل النُّور في الشَّمال، وهو الممرُّ الوحيد في جبال الأمانوس على السَّاحل السوري. منه مرَّت جحافل الأشوريين، والفرس، والرومان، والعرب المسلمين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي، ومنه عبرت الحملة الصليبية الأولى، والمماليك، والتركمان، والمغول، وصولاً إلى جيش إبراهيم باشا، وربما أراد أهلنا أن يكون لهم بيلانهم، بيلان آخر، وربما وصلوا إلى بيلان وعرفوه خلال نزوحهم الكبير إلى سهل (العمق) غربي حلب في بعض سنوات الجدب التي دهمتهم غير مرة، فقاوموا الموت بالهجرة.

كان يحدِّثها عن بيلانه، بينما هي تغرق في أحلامها، وربما كانت تسبح في بيلانها أيضاً!

Twitter: @alqareah

14

الأموات يُدْفَنُون مرَّتين

لم يكن حسينوه من أهل الصلاة ولا من زوَّار المساجد، ولكنه دأب في الفترة الأخيرة على أَداء صلاة الجمعة في المسجد، فالطَّاحونة لم تعد كسابق عهدها، فالإدارة الجديدة، أي الأستاذ علي بن الحاج عكلة شاب متهور، عنيد، ومنذ أن تخرج في الثانوية الصناعية قسم الميكانيك تعين في وظيفة حكومية في الرقة، لكنه لا يفارق الطاحونة، وعندما سأله حسينوه عن وظيفته، كيف يأخذ الراتب من الحكومة بدون أن يداوم، رد عليه:

ـ وهل الحكومة بنت أبيك يا حسينوه؟

منذ ذلك الوقت لم يعد جوّ الطاحونة كما كان حتى البنات لم

Twitter: @alqareah

يعد لهنَّ رغبة في مرافقة أكياس القمح بسبب جلافة هذا الأستاذ، وأمور أخرى . . .

ثم إن الصَّلاة في المسجد تتيح له المرور إلى بيت والدة المهندس صالح للاطمئنان على أحوالها، فهم جيران المسجد.

في خطبة الجمعة تعرّض الشيخ مصطفى لأمر لم يخطر على بال الكثيرين من أهل الكسرة وأولهم حسينوه، حمد الله الشيخ مصطفى وصلى على النبي، ثم قال:

- إخواني:

لم يعد خافياً عليكم أن هذه القرية بما فيها آيلة إلى الغرق في ماء البحيرة، والناس لابد خارجون إلى الرقة أو الحسكة أو. . . .، كلٌ يبحث عن رزقه، وقرأ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]

فساد صمت مطبق، واشرأبت أعناق المصلِّين إلى الشَّيخ الجليل وقد شعروا بحزنه ورجفة صوته، فانطلقت أصوات حشرجات من هنا وبكاء مكتوم من هناك.

وأضاف:

- الأموات لهم حرمة وحقوق، لذلك يجب علينا عدم تركهم يغرقون، يجب أن ننقذ الأموات قبل الأحياء، فالمسلم مكرَّم في حياته ومماته، فاتَّخِذوا ما ترونه محقِّقا لهذا، وختم بالدُّعاء

(1) لقمان 34

Twitter: @alqareah

وإقامة الصَّلاة، علماً أن الكثيرين صلَّوا قعودا ولم يستطيعوا الوقوف لأداء صلاتهم، وفي بوابة المسجد التفُّوا حلقات، يتبادلون القبل، وكل يطلب السَّماح من الآخر، وكعادته بيلان يفتح صدره للجموع الخارجة من المسجد إلى أن تغيبهم الأزقَّة الضَّيقة فلا تظهر إلا رؤوسهم. عندما أشرقت الشَّمس كانت المقبرة قد تحولت إلى ما يشبه المحشر، كل يحفر قبور موتاه، ثم يضع عظامهم في أكياس بيضاء تمّت خياطتها مسبقاً، الأطفال في أكياس صغيرة، الكبار في أكياس كبيرة، النِّساء يقدمن الماء والشَّاي للرجال الذين هدَّهم التَّعب من كثرة الحفر، والتصق الطِّين بوجوههم حتى أصبحت أشبه ما تكون بلوحة سريالية، يتقاطع فيها المعقول باللامعقول، الحياة بالموت، التفجُّع بالقناعة. وعندما مرَّ الشيخ مصطفى من أمام قبر الحاج جاسم وكان الذي يحفر حسينوه والمهندس صالح يبعد الأتربة فهو لا يحسن هذا العمل، وبعد أن أتمَّ قراءة الفاتحة، سأله حسينوه بخبث:

- شيخي هل هذا هو الحشر الذي تحدثتم عنه في خطبة الجمعة؟

ابتسم الشيخ بوقار وقال:

- يا حُسَيْن، هكذا نطق اسمه (حُسَيْن) هذه دار عمل وتلك دار حساب فصمت الجميع، وعادوا إلى الحفر بهمَّة أكبر. ومع حلول الظَّلام كان أهل القرية قد عادوا بأكياس عظام ذويهم، ليُعاد دفنها في اليوم التَّالي في الأرض المرتفعة التي لن تصلها مياه البحيرة، عدا نفرٍ قليل ممن رفضوا نبش القبور، إمَّا لأنهم لم

Twitter: @alqareah

يقتنعوا بمشروعية هذا العمل، أو لأنهم لم يروا ضرورة لأن ننقذ الأموات من الغرق، بينما نحن نغرق. وحسينوه من هذا الصنف الأخير، لذا رفض نبش قبر والده، تاركاً إياه يرقد بسلام، ويواجه مصيره، مثلما واجه الابن مصيره كل هذه السِّنين.

تغيَّب عن هذا اليوم الطَّويل الرفيق أحمد فقد كان في جولة مع عدد من القيادة مصطحبين مجموعة منتقاة من أبناء القرى التي سيطالها الغمر. قادتهم هذه الجولة إلى الأراضي التي سيعاد توطين المغمورين فيها. وهو اسم صار متداولاً بكثرة في ربوعها، انتقلوا من رأس العين إلى عامودا فالقامشلي، حتى وصلوا إلى الحدود السُّورية العراقية، صحيح أن لقاءاتهم في تلك المناطق لم تكن مريحة دائماً، فقد لاحظوا توجُّس النَّاس هناك من هذا الأمر، لكن الرَّفيق أحمد كان يشغله أمر واحد فقط، هو النَّجاح في هذه المهمَّة الكبيرة والتي ربما تكون أهمّ خطواته على طريق طويل يسيطر على تفكيره. مرَّت عملية الدَّفن وإنقاذ الموتى من الموت غرقاً، الوقت أصبح ضيِّقاً، وجاء وقت القرارات الصَّعبة. البعض قرَّر البقاء في المنطقة عينها، على أن يبتعد عدة كيلومترات من البحيرة ويعيش في ما تبقَّى له من الأرض وهم القلَّة، وآخرون لديهم بيوت في المدينة أو اشتروا أراضي على أطراف مدينة الرَّقة في حي الرُّميلة أو ما بعد سكَّة القطار وحتى محيط معمل السُّكر، ليكوِّنوا مجتمعا هامشياً من العشوائيات وبيوت الصَّفيح، أما الكثرة الباقية فليس لديهم خيار آخر! أما المهندس صالح فقد حزم أمره لأنه استلم شقَّة خاصَّة في حي المهندسين الحي الأول في مدينة الطَّبقة، لذا قرَّر الانتقال مع

Twitter: @alqareah

أمه ونجمة إليها، وهذا ما فجَّر براكين من الألم في صدر حسينوه، نجمة في الطَّبقة، وهو أين سيكون؟

ـ نجمة اسمعيني جيداً، لم يبقَ وقت للصمت، سأقول ما أريد ويجب أن تسمعي؟

ـ قل ما تريد، ومنذ متى تستأذن أحداً في ما تريد قوله؟

ـ لا أستطيع أن أكون بعيداً عنكم، أنتِ بالنسبة إليّ الهواء والماء والنَّفسَ الذي يتردَّد بصدري.

ـ ولكن!

ـ أعرف ستقولين أنتَ نسونجي، ولم تعرف الحب يوماً.

سأعترف لك أنني عرفت نساءً كثيرات، أكثر من شعر رأسِك الأشقر هذا. أطرقت نجمة وقد احمرت وجنتاها، ولكن ذلك لم يمنع حسينوه من الاسترسال. عرفتُ أرامل وطُمَّح[1] وبنات، ولكنِّي كنت أبحث عن امرأة تشبهك، فيها شيء منك، وعندما أفشل في كلِّ مرة، أنتقل إلى أخرى، ما يهمُّني الآن ما تقولينه، وحسب.

ساد صمت متحفِّز، خرجت بعده نجمة من الغرفة لحظات ثم عادت ووضعت في يد حسينوه منديلاً قماشيًّا مطرَّزا فيه شيء ما، وضغطت بقوَّة على أصابعه، وخرجت مسرعة ولم تعد.

---

(1) طُمَّح: جمع طامح وهو الاسم المحلي للمرأة المطلّقة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

15

بُرج حَمُّود

عندما أصبح غمر مياه السدِّ حقيقة وبدأ منسوبها بالارتفاع، بيعت محركات الطَّاحونة إلى تاجر حلبيٍّ، وبقي البناء الكبير دون سقف ولا أبواب، وهكذا وجد حسينوه نفسه دون عمل، إنه عاطل من جديد، ما إن يطفئ سيجارة حتى يشعل أخرى، ولكنه يساهم في مساعدة أولئك الذين بدؤوا في تجميع ما يمكن الاستفادة منه لاحقاً في موطنهم الجديد، من أبواب وشبابيك وخشب الحور الذي تمَّ استخراجه من سقوف الغرف، وفي الحقيقة بدأت فعليّاً عمليَّة الرَّحيل منذ مدَّة ولكنَّها كانت مقصورة على من عزموا الرَّحيل إلى مدينة الرَّقة، أمَّا الأكثرية وهم المرحَّلون إلى الحسكة والقامشلي فهؤلاء سيرحَّلون على نفقة الدَّولة، وبسيَّارات تؤمِّنها

Twitter: @alqareah

لهم، وفق جداول تحددها القيادة. وحتى يأتي الدَّور إلى كسرة مريبط، قرر حسينوه ومجموعة من الشَّباب قضاء هذا الوقت في العمل ببيروت فهم معتادون على هذا، ومع حلول المساء كانوا يعبرون الحدود في منطقة العريضة، بعد أن خاضوا مياه نهر صغير يشبه السَّاقية، رغم أنه أحيانا يكون خطيراً في فصل الشِّتاء، والخوض في هذه المياه يقدِّم لهم فائدتين:

الأولى: عدم الوقوف أمام شرطة الحدود وختم الأوراق وتسجيل الأسماء... والثانية: توفير ثلاث ليرات ونصف ليرة وهي رسم الدُّخول مع عدد من الطَّوابع للحدود السُّورية واللبنانية وهم جميعاً يحفظون الطَّريق عن ظهر قلب، في الصَّباح الباكر كانوا في برج حَمُّود أي سوق العمَّال.

كتلة بشرية كبيرة غالبيتهم سوريون ولكثرة تردُّدهم على هذا المكان عرفوا وجوه المترددين ـ وأحيانا أسماءهم وتبادلوا النكات البذيئة والبريئة، وسرقوا لحظات للفرح وسط كلِّ هذا الألم المجتمع تحت الجسر، وممَّن عرفوهم صوتا وصورة ذلك الرجل الخمسينيُّ ذو الشَّعر الأبيض المسترسل. ومما ساهم في حفظهم لصورته، تلك الأناقة التي تلازمه وهي مُسْتغربةٌ في سوق العمَّال، إضافة إلى سُكره الدَّائم، فإذا وصل إلى قمة سُكره وقف خطيبا:

ـ أيُّها اللاجئون الاقتصاديون [1]

---

(1) اللاجئون الاقتصاديون: مصطلح مقتبس من الصديق الدكتور: موسى الحالول، أستاذ الأدب المقارن في جامعة تشرين.

Twitter: @alqareah

ـ أيُّها الهاربون من نسائكم.

ـ أيُّها الملعونون في كل مكان.

يقاطعونه بالتصفيق والصفير، فتنتعش ذاكرته، ليقرأ لهم شيئاً من الشعر، ويترجم لهم مقاطع من الأدب العالمي، وربما ختم بآيات من القرآن الكريم، أو بمقاطع من الأناجيل وفي كل الأحوال يختم بالبكاء وشيء من القدود الحلبية بعد أن يكرع شيئاً من العرق، الذي يؤكد على أنه صناعة وطنيَّة سوريَّة ولا علاقة له بعرق «كفريَّا»[1]. ومع نهاية خطبة الدكتور ـ وهذا اسمه الذي يطلق عليه في مجتمع تحت الجسر ـ حضر الخواجة جورج، فقفز حسينوه مع ثلاثة من أبناء القرية في السيارة، وفي كل يوم بعد العمل ينامون في الورشة، أما حسينوه فيده تتحسَّس محفظته دائماً، وكلما وجد فرصة أخرج ذلك المنديل المطرَّز، وفتحه بسرعة ليطمئن على خصلة الشَّعر الأشقر المربوط بخيط حريري، وقد اعتاد أن يضع شيئاً من الطِّيب الذي اشتراه مؤخراً من بيروت على المنديل، ثم يخفيه بسرعة قبل أن يكتشف أمره. صحيح أن الشَّباب كانوا يخرجون يوم الأحد إلى الرَّوشة والبحر، لكنه كان يعتذر في كل مرَّة ويبقى في الورشة وهي عبارة عن عمارة غير مكتملة، المهم أن لها جدران تخفيه عن عيون المارة. مرَّت الأمور سريعاً ولم يحصل ما يزعجهم حتى اليوم الأخير، عندما أخبروا الخواجة جورج أنهم مضطرون للعودة وشرحوا له الأسباب باختصار، لكنَّه رفض

(1) كفريَّا: بلدة لبنانية فيها مصنع للمشروبات الكحولية.

Twitter: @alqareah

وماطلهم بدفع الحساب، إنهم يعرفون تماماً الجهة التي تجبره على الدَّفع.

بسرعة غاب حسينوه ساعة وعاد من الفاكهاني[1] ومعه الفدائيون[2] الذين ترجَّلوا من سيَّارتهم الجيب، ودخلوا إلى المكتب المؤقَّت للخواجه، وهو غرفة جاهزة يستخدمها مهندس المشروع. ولم يطل بهم الوقت حتى خرجوا والمسدَّسات تلمع في خاصرة كلٍّ منهم، اقترب أحدهم ويبدو أنه أعلاهم رتبة إلى حسينوه، قال:

ـ كم لك عند الخواجة؟

ـ خمسمئة ليرة يا سيدي.

ـ خذ حقك.

نظر حسينوه إلى المبلغ فوجده مئتين وخمسين! صمت قليلاً وقال:

شكراً، الله ينصركم، عاشت القضية.

حاول أحد أبناء عمومته التَّدخل، أشار إليه حسينوه:

احمدِوا الله يا رجال،الرَّمد ولا العمى، بركة، يا ألله، إلى موقف الباصات إلى حلب، مردِّداً بيت الشِّعر الوحيد الذي يحفظه من أيام المدرسة:

---

(1) الفاكهاني: مقر العمليات لقيادة الثورة الفلسطينية.

(2) الفدائيون: الاسم الذي يطلق على رجال المنظمات الفلسطينية في لبنان.

Twitter: @alqareah

كلما رحُبَت بنا الرَّوض قلنا حلب قصدنا وأنت السَّبيل

وبينما كانت الحافلة تنزلق في الظَّلام، كان ذلك الصَّمت الدَّبق يملأ الفراغ فتميل رؤوس الرُّكَّاب على أعناقهم. أولئك المحمَّلون بأوجاعهم وفقرهم، بينما يدخل حسينوه إلى قوقعته، فيقيم جدران العزلة بينه وبين هذا العالم، فيغيب في أحلام يقظته.

كانت المرة الأولى التي تعرّف فيها بيروت، شابّ قوي البنية، مفتول الشَّاربين، لم تكن تحمل في محفظتك ما يكفي لوجبة طعام، مللت من الانتظار.

تحت هذا الجسر اللعين، تصَّرمت ساعات النَّهار، ولم يأتِ ذلك المقاول المنتظر، وقفت سيَّارة صغيرة ببابين، انفرج الزُّجاج المظلَّل عن امرأة أربعينيَّة تخفي عينيها بنظَّارة سوداء واسعة تكاد تغطِّي وجهها، قالت بصوت ناعم لا ينقصه الحزم:

ـ يا شب، يا شب

ـ أنا!

ـ وهل هنالك من يجلس في هذا المكان غيرك؟

اقتربتَ من السَّيارة ففتحت لك الباب مشيرة بالدُّخول، جلستَ إلى جانبها، كنتَ تعتلي غيمةً من العطر، فتجوز سحاب الذَّاكرة، لتمطر فرحاً ودهشة، مدَّت يدها بعلبة السَّجائر، لم تترك لك فرصة للاعتذار، وبينما كانت السَّيارة تصعِّد في جبل بيروت الذي يحتضن البحر، كنتَ تتقلَّب في أحضان أوهامك وتساؤلاتك، لم يطل بك

Twitter: @alqareah

الوقت، أو ربما طال لكنَّك كنت خارج الزَّمن، ترجَّلتما، قفزت أمامك لبؤة ناعمة، تبعتها كأنك في غيبوبة لا تعلم مبتدأها ولا خبرها، يا لسذاجتك! سألتها:

أين العمل الذي تريدين منِّي أن أقوم به؟

أطلقت ضحكة ناعمة، وأشارت إلى قلبها قائلة:

هذا هو العمل، إنَّه مرهق يحتاج لرجل قوي، يعيد له نضارته، ليتدفَّق دمه من جديد!

انزلقت الكلمات على أذنيك كحبَّات المطر، ازددت عمقاً في جُبِّ غيبوبتك، نسيت جوعك، بل ربما ضجَّت مساماتك بجوع لا ينتهي، وربما ضحكت في سرِّك، وهمست:

كلُّنا متعبون، نحمل آلامنا على عواتقنا، البعض جائع للخبز، والآخر جائع للحب، كنت تقلِّب النَّظر في ردهات تلك (الفيلا) الفخمة على كتف الجبل، أنوارها خافته مهيبة، نقوش وتحف من كل البلدان تطرِّز مساحاتها، رسمتها يد فنان، لكنَّها باردة، لا حياة فيها، إنها المرَّة الأولى التي تنام فيها على سرير، كانت وردة ذابلة تتفتح بين يديك، جسد مضمَّخ بالعطر يملأ عالمك بالرَّغبة والحبور، لا تناور في ما ترغبه تعلن عن شهوتها بلا مواربة، كنت ذئباً برِّياً تأخذها بين ذراعيك، تمرِّغ وجهك في ساقية العسل المنسكب بين نهديها، فما إنْ يهدأ ذلك العواء في صدرك حتَّى يعاودك من جديد.

كنتَ سائق السِّت ومرافقها إلى مرابع بيروت، كائنات ليلية

Twitter: @alqareah

تكره النُّور، لذا بدأتَ تتحوَّل يا حسينوه إلى عالم آخر لم تعهده، انتشت خلاياك بفرح مشوب بالخوف، لازمتك الدَّهشة كظلِّك، لكنَّك ماضٍ في غيِّك إلى سِدرة الوجد، ظننتَ أنَّكَ قد عرفت النِّساء كباطن كفِّك، لكنَّك ستكتشف جهلك وأميَّتك النِّسائية، بدأت الحلقة تتسع، لتكتشف أنَّ عالم هذه المرأة أوسع من عقلك الصَّغير، ألم يقل لك المدرِّس ذات يوم إنَّك حمار؟

أُخطبوطٌ هذه المرأة، يجتمع إليها أهل السِّياسة والفنِّ والتِّجارة، أحيانا تتحوَّل (الفيلاّ) إلى ناد سياسي وأحياناً إلى ماخور، وفي تلك المساءات تتحول السِّتّ إلى فراشة فيها من الرَّبيع ألوانه، ومن النُّور شفافيته، وفي كلِّ مرة كنتَ تفغر فاك مشدوها، وأنت بين الغَسَق والغَلَس نقطة صغيرة منسحقة بين أرجل كثيرة ممعنة في تشظيتك وتحطيمك.

ـ ما الذي يجعلها تنجذب إليك، أنت من دون خلق الله؟

ـ ألا تجد في من يحيط بها من أهل الجاه والمال من يستحق العناء؟

كنتَ تضحك ضحتك المعهودة وتفسِّر ما يدور حولك تفسيراً غريباً، تقول:

أنا الوحيد الذي لا تخاف منه، والوحيد الذي لا قيمة لما يمكن أن يقول، أنا كائن فطري يمارس غريزته دون رتوش، جسده أرض بكر يختزن رائحة الأرض والفرات، تضحك كثيراً، وتسترسل في تفسيرك، أليس كثير من الناس يشتهون البصل عندما

Twitter: @alqareah

يكون أكثر طعامهم العسل؟! وأنا ذلك البصل الذي تشتهيه هذه الفراشة، وكنتَ تضحك حتى البكاء، وأنت تتنقَّل بين الضيوف ملبِّياً طلباتهم التي لا تنتهي، وفي آخر الليل تعود حسينوه أو حسُّون أو سون، فأنت لا تستقر على اسم واحد أكثر من ليلة واحدة.

كثيراً ما كنتَ تتحدث صامتاً:

لماذا نصِفُ المرأة التي تبيع جسدها بكلِّ ذلك المعجم الثريِّ بالأوصاف الحارقة: قحبة، شرموطة، عاهرة؟

لكننا نغضُّ الطَّرف عن الرَّجل الذي يبيع جسده، ويسلِّع عواطفه، وينثر كلَّ ذلك المعجم المراوغ بين يدي امرأة، وعينه على حفنة من الدُّولارات، أو الأراضي، أو العمارات، وهو مستعدٌ لنثر تلك الجواهر المزيفة من أغاني العشق والولَه بين يدي عشرات النساء في وقت واحد، فلا نقول عنه:

قحب، شرموط، عاهر، نصمت حتى البكم!

لقد تحوَّلت هذه النجوى إلى وجع يقضُّ مضجعكَ، ويكدِّر صفوك، كنت تقول أحيانا:

لا بأس ما الضَّير في أن أعيش مثل الآخرين؟

ثم تنتفض روحك كيمامة مبلَّلة بمطر جاء على غير ميعاده، يتعملق فيك شعور التفرُّد، ويتدفَّق الفرات في عروقك كرامة وعزَّة، حاولتَ أن تلتحق بصفوف الفدائيين من خلال أحد المناضلين الذين عرفتهم في (الفيلّا) إلا أنّك تَراجعت عندما أخبرك أنَّه سيجعلك ترابط على باب الكازينو للاستفادة من خبرتك، وقلت:

Twitter: @alqareah

ـ يكفيني أنِّي بعتُ نفسي مرة واحدة، فطريقي ليس هذا.

في الطَّريق النَّازل من قمة الجبل، وقبل شروق الشَّمس كنتَ وحيداً تتعثَّر بخطواتك، بعد أن أغلقت الباب بهدوء، وتركت مفاتيح السَّيارة والبوَّابة على طاولة صغيرة عليها باقة كبيرة من الزُّهور جلبها أحدهم في الليلة الفائتة. أغلقتَ الباب بهدوء دون جلبة، خرجتَ مبتعداً تحمل جوعك وخيبتك كما دخلت. كان البحر يلوح من بعيد، والسُّفن تظهر أعاليها في ذلك الامتداد الأزرق الذي لا ينتهي، وصوت سائق الحافلة يستحثُّ ركَّابها على الاستعداد للنزول في محطَّة حلب، وبينما انشغلوا بتجميع أكياسهم وحقائبهم، كان حسينوه يحمل صرَّته الصَّغيرة في يده مترنماً:

كلما رحُبَت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السَّبيل

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

16

الـرَّحِيـل

عشرات الشَّاحنات بل المئات منها غزت القرية منذ الصَّباح، كل سائق يحمل ورقة صغيرة كتب فيها اسم العائلة التي كُلِّف بترحيلها، سائقون من كل المحافظات السُّورية جاؤوا طوعاً أو كرهاً، والشَّباب وحتى كبار السنِّ بدؤوا بتحميل الأخشاب أولاً والأبواب والشَّبابيك القديمة ثم الفرش والوسائد الكثيرة، فكلُّ بيت لديه عدد هائل منها فهي علامة الاكتفاء والكرم وحب الضُّيوف.

استمر العمل طوال النَّهار، الشُّرطة والرَّفيق أحمد وعدد من أصحاب القمصان النَّظيفة كانوا يتجوَّلون من شارع إلى آخر، ومن بيت إلى آخر لا فرق بين الحي الشمالي والحي القبلي، التعاطف هو سيِّد الموقف، فقد يستوقفك أحدهم ليقول:

Twitter: @alqareah

ـ سامحني يا أخي، فقد أخطأت معك في الموسم الماضي.

ـ ألله يسامحنا جميعاً، مسامح دنيا وآخرة.

والكثير من البنات يتأكدن من أسماء عائلات معينة وهل يكونون في هذه القرية أم تلك؟ الفرق كبير، هذه تطلق ضحكة ناعمة، وتلك تتحسر بألم لا ضفاف له، حسينوه رغم تعب السفر إلا أنه لا يبخل بجهده على أحد حتى مع جاره إسماعيل الذي أصرَّ على أن يأخذ حماره معه في الشَّاحنة، وقد اجتمع عدد كبير من الشَّباب فأعياهم الأمر، وكان هذا الحمار صعب المزاج، إذ كلما أُجبر على ركوب الشَّاحنة ـ التي أوقفها السَّائق في أرض منخفضة أمام تلَّة من الرَّمل مما يسهِّل تحميل الأمتعة دون سلالم ـ ومع هذا أبى حمار إسماعيل الرُّكوب، وفي المرَّة الأخيرة، رفس أقرب الشَّباب إليه وهرب إلى الغرب باتجاه النَّهر فتبعه الأولاد يريدون إعادته، حتى إذا وصل إلى الشَّاطئ ظنُّوا أنَّه لابدَّ واقف؟ لكن ما خيَّب ظنَّهم هو خوضه الماء حتى وصل إلى بطنه، وبدأ مستوى الماء يرتفع، عندها قال إسماعيل بألم:

اتركوه، أعرفه عنيد، عنيد، لا يريد أن يبرح أرضه، ربما سقطت دمعة من عينه، فأدنى عليه جمدانته فمسح دموعه، بينما كان الحمار يغيب في أعماق النَّهر، ثم يظهر فجأة، ليغيب مرة أخرى.

صلّى أهل القرية في مسجدهم لآخر مرة، السَّيارات قد حُمِّلت تماما، ولم يبقَ إلا أن يجتمعوا في مضافة المختار (الأوضة) ليعلن

Twitter: @alqareah

الرَّفيق أحمد أسماء المرحَّلين وتوزيعهم على القرى. رئيس المخفر يتصدر المجلس وقد أسند بارودته إلى الجدار، لا يتدخل، ولكنه يراقب. فلما وصل في قراءته الأسماء إلى المواطن: حسين العبد وهو نفسه حسينوه وذكر اسم القرية التي سيتم ترحيله إليها، نهض حسينوه من المجلس وقال بصوت غاضب:

ـ أله، أله يا ابن المختار، تأخذ أقاربك إلى الأرض الطيبة، ونحن إلى جهنم، هذه هي العدالة يا رفيق، وأصدر صوتاً بشفتيه من شدة الغضب.

لم يردّ عليه أحمد، لكن رئيس المخفر، سحبه من ثوبه بقوة أطاحت به الأرض، وأمسك بشاربيه، وهو يقول:

ـ من لا ينفذ أمر الحكومة، ننتف شاربيه، وحرك يده بسرعة، ثم نفخ على أصابعه فتطاير الشعر في الأرض.

لا أحد في المجلس يعرف كيف حصل ما حصل؟ عقدت الدهشة ألسنتهم من هول الصدمة، قفز حسينوه كمهر لم يروَّض بعد، وخلال لحظات،كان يقف خلف رئيس المخفر، يحمل بارودته، ويسوق طلقة في بيت النار، ويضع فوهة البارودة خلف أذن رئيس المخفر، وهو يصرخ:

ـ يا سعدو الكلب، سأجعلك تنسى حليب أمك الذي رضعته.

ـ هذه بارودة حكومة، وأنت ترتكب جريمة يا حسينوه

ـ لا شيء لديَّ أخسره!

Twitter: @alqareah

يحاول البعض التدخل، يرفع حسينوه فوهة البندقية، ويطلق رصاصة في السقف، تتساقط الأتربة، تتعفر الوجوه ثم يعيد البندقية ثانية، وهو يقول:

ـ هيا، يا أجرب، ستدفع ثمن كل ما فعلت بنا، تذكَّر كلَّ أولئك الرِّجال الذين عرَّيتهم، وجعلتهم يمشون في السُّوق أمام خلق الله، أتذكر ذلك المعلِّم الذي طلبت منه ابنتك أن يكتب لها رسالة غرامية لترسلها لشابٍّ تحبه، فوقعت الرسالة بيدك وظلمت ذلك المسكين وجعلته يذرع السوق عريان جيئة وذهاباً، لكزه بأخمص البندقية الخشبي، هيا، هيا اخلع ملابسك، اخلع وإلا فجّرت هذا الرَّأس العفن الآن، تلكأ قليلاً، ولكنه خلع قميصه الخارجي فالداخلي، اندلق كرشه إلى الأمام، وانكشف شعر صدره الكثيف كقرد، طلب منه النُّهوض، والعبور أمام صفَّيْن من الرِّجال حتى خرج من الباب، كان الظلام الدامس قد حلَّ مبكراً، والضوء الوحيد المشتعل هو ضوء «الأوضة» غابا في الظلام، لا يظهر منهما إلا شبح لرجلين، يسيران متتاليين، ابتعدا في الأراضي الزِّراعية، غيَّبهما شجر الغَرَب[1] والطَّرفاء، سمع النَّاس صوت طلقة واحدة.

ساد بعدها صمت، أعقبه ضجيج وتدافع، وكان أوَّل الواصلين الرَّفيق أحمد وعدد من أعضاء لجنته وبعض أهل القرية، كان المساعد سعدو يجثو منكمشاً على نفسه وهو يرتجف، ولا يردُّ

(1) الغَرَب: من فصيلة الحور شجر ينتشر على ضفاف الفرات

Twitter: @alqareah

عليهم، حاولوا مساعدته للوقوف، وقف مستندا إليهم، لا أثر لدم أو إصابة، الشَّيء الوحيد الذي لاحظوه بقعة كبيرة رطبة في مقدمة بنطاله.

في الصَّباح وجدوا بندقية الحكومة على شاطئ الفرات قريبة من الصَّخرة التي يربط إليها (الشَّاحوف)، ولكنهم لم يجدوا الشَّاحوف في مكانه.

تناقل أهل القرية معلومات متضاربة عن حسينوه، أكَّد بعضهم أنَّه في (الطَّبقة)، بينما يؤكد الكثيرون أنه في وادي شحرور، يعمل سائقاً عند مطربة لبنانيَّة شهيرة، وعَ النَّدَّا، النَّدَّا، النَّدَّا، ورد مفتح عَ خدَّا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

17

كانَ فَمِي جُرْحًا[1]

المهندس صالح كان يقول دائماً إنَّ تلازم الفرح والحزن إرث عائلي منذ أن جاء أخواله من جبال الأرارات، ظهور ميرنا في حياته، سفرها المفاجئ، وقد أعاد قراءة رسالتها عشرات المرات:

عزيزي صالح

«لقد صدرت أوامر القيادة السُّوفيتية[2] بضرورة الالتحاق بعملي الجديد بعد تخرُّجي في جامعة دمشق قسم اللغة العربيَّة وذلك في القسم العربي التابع لراديو موسكو. . . . سأشتاق إليك. . . »

(1) العبارة لشاعر أوردي أجهل اسمه.

(2) هذه الأحداث جرت قبل تفكك الاتحاد السوفييتي

Twitter: @alqareah

عزاؤه الوحيد أنَّه يستمع إلى صوتها في برنامجها الأسبوعي (خواطر شرقية) وأحياناً تقرأ بعض موجزات الأخبار، وأمُّه ونجمة تضيقان ذرعا بالشقَّة وخصوصاً من إغلاق الباب الخارجي طوال اليوم، وكانت أمُّه تريد أن تتركه مفتوحاً، لأنها تعتبر إغلاق الباب دلالة على البخل، ونجمة تنظِّف الشقَّة وتمسح الصُّور الكثيرة التي عُلِّقت على الجدران، وكلُّها لوجوه لا تعرف معظمها، وخصوصاً تلك الصُّورة التي يظهر فيه رجل مضيء الجبين، لحيته كثَّة، وعيناه عميقتان وعندما سألت صالحاً عنه:

قال لها إنه الشَّيخ ماركس، فقالت أمه:

ـ دستور من خاطره

صالح لم يعد كما كان. يجلس منعزلاً وأحياناً يذهب إلى الحي الرُّوسيِّ، لكنَّه يكتب كثيراً، ويتردد إلى مكتب البريد، في المساء. كان يستمع إلى راديو موسكو، وصوت ميرنا الناعم يأتيه من البعيد، ترنُّ ضحكتها في أذنيه عندما تقول:

ـ هذه خاطرة وردتني بعنوان «كان فمي جرحاً» ولم يوقِّع مرسلها باسمه بل اكتفى بعبارة (إلى الكونتيسة البرولتيارية).

وبينما كانت حلقات الدُّخان من سيجارته تتلاشى في البعيد، كان يرصد ألف سؤال في عيني نجمة، يداعبها قائلاً:

ـ لا بأس يا نجمة كل أولئك الذين عبروا هذا النهر هاربين، كان لهم شأن في مكان آخر، هرب مروان بن محمَّد آخر خلفاء بني أميَّة من هنا، كما عبر عبد الرحمن الدَّاخل بعد أن شهد مقتل أخيه، وبعدها صار صقر قريش وقال عنه أبو جعفر المنصور:

Twitter: @alqareah

ـ «الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر»

لم تفهم شيئاً، وبقيت عيناها مفتوحتين كغيمة وقد تجمدت على شفتيها كل الأسئلة المستحيلة

ـ سيعود يا نجمة، سيعود، ويمسح شعرها وربما اغرورقت عيناه بالدموع، فأطرق وهو يحاول ألا تراه وبينما كان يكتب على الورقة البيضاء التي أمامه: ((الكل يناديه الحاج. . .))

كانت أمه تتحسَّس تلك الصُّرة الجلدية التي لا تفارقها أبدا وفيها ذلك الصَّليب الخشبي، وهي تستعد لأداء صلاة العشاء، وصوت ميرنا ما زال يعطر الأجواء وهي تسترسل بالقراءة:[1]

((كان فمي جرحاً))

كانت تنتفض كعصفور باغته الشِّتاء، عيناها غائمتان ورائحة التُّراب البكر تمتزج بحِنَّاء ذوائبها، كان يفشل في كل مرَّة يحاول فيها رسم الحدود بين الحنْطَة في وجهها وحقول القمح في تلك القرية التي نسيتها الخرائط.

قالت له: غداً ستحمل ذاكرتك المسكونة بالخوف وستخرج بلا وداع، متلفِّعا بالصَّقيع، تَخُبُّ في دروب مسيَّجة بالحَرْمَل وشُجَيراتٍ لا رائحة لها.

(1) نشرت هذه الخاطرة في مجله (الشقائق) الصادرة في بيروت ع 2/ 1996م.

Twitter: @alqareah

ها أنت ذا - كما قالت لك - طريد في مدن لا تذكر أسماءها ولا تعرفك، تعيش في كهوف الحزن وأقبية الخيبة، تهرب من وهج الشَّمس مجترًا آلامك.. تراها في كل الأشياء مع أية غيمة شتائيَّة ستأتيك لا تعرف.

وأية ريح ستطوِّح بها بين يديك؟ لا تعرف، كل ما تعرفه أنَّك قطعت كلَّ الجذور عندما قررت أن تحيا بلا ذاكرة، ونسيت أنَّها قالت لك في الوداع الأخير:

إن مَن يحرِق سفن الذاكرة لن يعرف طريق العودة... وهكذا كان.. تركتَها تغسل قدميها بماء الفرات وتحتضن سعف النَّخلة الأخيرة، ولم تعد تفرِّق بين رائحة الهيل وضباب المدن... لا تباعد بين أصابعك فأنت تقبض على حفنة التُّراب الأخيرة...

Twitter: @alqareah

الكتاب الثاني

الرُّمَيـلَة

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

الرُّميلة[1]

كتلةٌ من الإسمنت الأصمِّ لا قلب لها، سيارات مسرعة، نساء يطلين وجوههن بالأصباغ وكأنهنَّ في حفلة تنكُّريَّة، هذه هي المدينة يا حسينوه، إنَّها طاحونةٌ تشبه طاحونتك، ولكنَّها تطحنك وأمثالك بدل حبيبات الحنطة التي كنت تقدمها لها بيديك، هذه هي المدينة. البطولة الحقيقية ليست أمام المساعد سعدو، ولا في دبكة الولْدَة يا ملك الولْدَة! بل في بقائك واقفاً على قدميك في هذه الغابة التي تسمَّى المدينة، كنت تعرف بيروت، ولكنَّك لم تكترث بها كثيراً، لأنَّك كنت تذهب لغاية محدَّدة العمل في الصَّيف والعودة سريعاً،

(1) الرُّميلة: حي عشوائي على أطراف مدينة الرَّقة الشَّمالية.

Twitter: @alqareah

أما من الآن فصاعداً الوضع مختلف، ستحفر مسارك بيديك، بأظافرك، بأسنانك، لا يهم، المهمُّ أن تبقى واقفاً.

قبل أن يخرج حسينوه من البيت الذي استأجره في الرميلة في تلك الفُطور التي نَمَت على أطراف المدينة الشَّمالية، كتل عشوائيَّة ليس لها هُوية ولا لون، لا يعرف لها بداية ولا نهاية، تنصِّفها قناة للصَّرف الزراعي تأتي من مزارع الدَّولة القريبة، لتزيدها بؤساً وبعوضاً ورائحة نتنة، كان يعيد درسه اليومي لنجمة:

لا تفتحي الباب لأحد فهذا الحي خليط من الناس، لا نعرف معظمهم، فيهم الطَّيبون وفيهم السرسريّة «الثرثرية»، ثم يسألها عن احتياجات البيت عندما يعود من العمل، ويمضي حاملاً معوله وصفيحة معدنية فارغة، يتحسس بيده الأخرى أثر ذلك الجرح الكبير في جبينه. وهذا ما بقي من آثار الأيام الأولى للعمل، عندما توجه إلى ساحة المتحف وهي السَّاحة التي يتجمع عندها العمَّال في كلِّ صباح، وهو يصرُّ على تسميتها (سوق الزِّلم)[1] وعندما يحضر أحد المقاولين، يهجم عليه العمَّال، بل يركب بعضهم في حوض الشَّاحنة الخلفي دون انتظار الاتفاق أو موافقة صاحب العمل، وهذا ما فعله حسينوه في تلك الصَّبيحة الشِّتائية الباردة، ولكنه فوجئ بأحد العمَّال الذين قفزوا معه إلى الحوض يسحبه من ثوبه، ويقول:

انزل بسرعة، فأجابه مستفسراً عن السبب، فقال له:

---

(1) الزِّلم: جمع زَلَمة، عامية، وقد تكون فصيحة تتضمن كناية ما، ومعناها الرجل.

Twitter: @alqareah

أنت لستَ من عمَّال السَّاحة، وكل يوم تكسر أنت وأمثالك السُّوق علينا، لم يفهم حسينوه مصطلح (كسر السُّوق)، فتبرَّع أحدهم بالشَّرح:

أنت وأمثالك من أبناء القرى القادمين للمدينة، تنافسوننا في رزقنا، وتقبلون بأي سعر يعطيه المقاول. انتفض حسينوه، ونهض واقفاً، وأمسك به من قميصه بقوَّة، وأدناه منه قائلاً:

اسمع، سآتي إلى (سوق القحاب) هذا كل يوم، ولن تستطيع أنت وأمثالك من منعي، ثمَّ دفعه بقوة فسقط الرَّجل من السَّيَّارة، حاول النُّهوض فلم يستطع، فأخذ العمَّال يصرخون:

الرجل مكسور اطلبوا الشُّرطة، اطلبوا الإسعاف، ولكن قبل وصول الشُّرطة اقتحم أحدهم الصُّفوف، وهو يحمل قدُّوما، وبسرعة خاطفة سقط حسينوه مغشيًّا عليه والدَّم يغطِّي جبينه ووجهه، وعندما وصلت النَّجدة كانت السَّاحة شبه خالية. في القسم أخبر حسينوه المحقِّق أنَّه لا يدَّعي على أحد، وعاد إلى بيته معصوب الجبين، وقد أضاع عدَّة الشُّغل كما كان يسمِّيها، وأخبر نجمة أنَّه سيساعدها في كنس البيت ولمدة أسبوع ممازحا إيَّاها، ومخفِّفا من دموعها السَّخية عندما رأت آثار الدَّم على ثيابه.

تغيَّب عدَّة أيام عن السَّاحة، ثم عاد وجلس في المكان نفسه، يمجُّ سيجارته بهدوء وترقُّب. اقترب منه رجل خمسينيٌّ يلبس ثوباً مثله وعقالاً، وهمس في أذنه:

لستَ قادراً على مواجهتهم يا ابن العم، إنَّهم عصابة، ومفتاح

Twitter: @alqareah

السُّوق في يدهم، فلا تقطع رزقك! وقبل أن يردَّ عليه كانت سيَّارة المقاول عطا تقف على مقربة منهما، اندفع إليه عدد من العمَّال المتبقِّين في السَّاحة، لكنه أشار بيده إلى حسينوه قائلاً:

أنت لا تصلح للعمل معي، ولم يردَّ على استيضاح حسينوه عن السَّبب، بعد أن أطلق العنان لمنبِّه سيارته، وانطلق بالعدد الذي يلزمه لهذا اليوم، كان الرُّجل الخمسينيُّ ينظر إلى حسينوه نظرة فهمها تماماً، فاقترب منه، وقال بتحدٍّ:

أنا باقٍ في ساحة المتحف، وسنرى!

دارت أكواب الشَّاي على من تبقَّى من العمَّال، وتصاعد البخار عالياً، فالجوُّ بارد وجافّ، نظر حسينوه إلى الأعلى فإذ باليد التي شجَّت رأسه منذ عدَّة أيام تمتدُّ إليه بالشَّاي، تراجع إلى الخلف وأمسك بعصا معوله، والدمُّ يغلي في عروقه، لكنَّ اليد التي تحمل الشَّاي بقيت ممدودة، صرخ به، خذ حذرك فليس من شيمتي الغدر، فابتسم حامل الشَّاي، وقال:

لديك كل الحقِّ، هذا رأسي جاهز لتقتصَّ مِنِّي، فما فعلتَه في قسم الشُّرطةِ لا يفعله إلا الرِّجال، كان دمك يجلِّلُ وجهك، ولم تَّدعِ على أحد!

ـ لستُ ممَّن يشتكون للشرطة أو غيرهم، أنا آخذ حقِّي بيدي.

ـ وأنا جاهز للحقِّ.

وقف الرِّجال وتركوا أكواب الشَّاي على الأرض، ساد الصَّمت

Twitter: @alqareah

والتَّرقُّبُ، لكنَّ حسينوه جلس على الأرض متربِّعا ومدَّ يده بحركة خاطفة ليأخذ كوب الشَّاي، ويرتشف منه رشفة سريعة مصدراً صوتاً مسموعاً بشفتيه. سكنت تلك القلوب المتعبة، والوجوه المتغضِّنة الحادَّة التَّقاطيع، وبدأ عدد كبير منهم يلفُّ السَّجائر بسرعة كبيرة، بينما كان حسينوه يتحسَّس جرحه الغائر في جبينه، ربما قال لنفسه:

لم يبقَ في الرُّوح مكان لجرح، لذا أخذت جراحنا تحفر أخاديدها في وجوهنا، كان يدخِّن بشراهةٍ. هذا الصَّباح، جلس منيف وهو الرَّجل الذي ترك أول بصمة للزَّمن الأغبر في جبينه، وربّت كتفيه بصمت، أمسك حسينوه بكفِّه وضغط عليه برفق، قال:

لا بأس يا منيف، عندما تضيق الحياة بنا، نبدأ بتصفية حساباتنا بعضنا مع بعض، المقاولون يريدون دمنا مقابل دراهم معدودة، ما يهمُّهم عماراتهم، أما نحن فيكفينا اللُّهاث الذي لا ينتهي لنلحق بالرَّغيف، إنَّه السمُّ الذي يجب علينا الركض خلفه. تْفوُه... على هذه الحياة التي لا تعني إلا الرَّكض خلف اللقمة المغموسة بالدَّم والعرق.

نهض منيف من مكانه ممسكاً بيد حسينوه رافعاً إيَّاها للأعلى، وبقي ممسكا بها حتى أخرجه من ساحة المتحف، وهو يقول له:

دعنا نخرج من ساحة القحاب هذه كما سمَّيتها، فإنني يضيق صدري كلما أقعينا خلف هذه (القَشْلة [1] وكأننا نعرض أنفسنا على

---

(1) القَشلة: مفردة تركية، معناها المعسكر، مركز الجنود، وهي مأخوذة عن الإنكليزية (castle) دخلت العربية بلفظ (قسطل) مع الحملات الصليبية، ويشار إلى أن المتحف كان ثكنة عسكرية سابقاً.

Twitter: @alqareah

الزبائن، نعم اسم على مسمّى. بينما كان حسينوه يلوذ بالصَّمت، ولجَ الرَّجلان دكاناً صغيراً في آخر الزُّقاق بعد أن نزلا إليه بضع درجات بما يشبه القبو، رغم أنَّ المكان قليل الإضاءة والتَّهوية، لكن حسينوه استطاع تمييز بعض الوجوه، والرَّائحة النَّفَّاذة أغلقت عليه منافذ تفكيره، حاول الاحتجاج لكنَّ منيفاً عاجله بالطلب:

ـ أبو إلياس يستر حريمك كاسين على كيفك!

ـ ولكن!

ـ بلا لكن بلا بطيخ، حلاوة الصُّلح!

أصبح صوت (أبو إلياس) ناقوساً يعيده إلى جزيرة الأمير، وكارْمِن، والشَّحرورة وفيلّا الجبل، وعَ النَّدَّا النَّدَّا النَّدَّا، ورد مفتَّح عَ خدّا.

عاد الرَّجلان إلى السَّاحة وقد تلثّم حسينوه بطرف جمدانته واتَّكأ على جدار المتحف دقائق ثمَّ توقفت سيَّارة صغيرة ليست لمقاول معروف، أشار منيفٌ بيده لحسينوه ولرجل آخر من أبناء عمومته، ولم تمرَّ سوى لحظات حتى ترجَّل الجميع في طرف المقبرة، همس حسينوه لمنيف هل تريد دفني هذه المرة يا (أخو هدلة) وهو الاسم الذي سمع جماعة أبي إلياس ينادونه به؟

ـ وكِّل ربَّك يا رجل، الأخ يريدنا أن نحفر قبراً لجدِّه.

ـ ما بقي إلا هذه!

ـ يا رجل نأخذ أجرتنا، ونقرأ الفاتحة، ونمشي.

تمتم حسينوه لنفسه: السُّكر يخفِّف وحشة الموت، سمعه منيف، فاستفسر منه:

Twitter: @alqareah

ـ على الأموات أم على الأحياء؟

ـ الأموات ارتاحوا، ولكن الأحياء هم مَن يتجرَّع الكأس.

ـ أي كأس؟

ـ ابدأ بالحفر، وأرحنا من أسئلتك.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

القَشْـلَة

ساحة صغيرة ولكنَّها عالمٌ له قوانينه التي يصعب اختراقها، لقد صنعت نظامها بعيداً عن كلِّ آليَّات الحياة خارج هذا المكان، واكتشاف تلك القوانين ليس سهلاً، بل يجب أن تكتوي بنارها أولاً. كان منيف يحدِّث حسينوه بصوت خفيض، وحسينوه يتحسَّس بقايا جرحه في جبهته، وقد تحوَّلت تلك إلى عادة تلازمه دون أن يقصدها، تابع منيف حديثه:

انظر إلى تلك المجموعة التي تجلس أمام مطعم الحمّص والفلافل إنها مجموعة (الزُّكرت)[1]، ضحك حسينوه مقاطعاً، وهل لديكم زكرت مع كلِّ هذا الشَّقاء؟

(1) الزكرت: مفردة تركية، تعني الشهم، أو ما يسمَّى بالقبضاية (في الشَّام)، أو الفتوَّة (في مصر)، محرفة عن الإنكليزية (escort) وتعني المرافق الذي يعتمد عليه.

Twitter: @alqareah

ـ نعم يا صاحبي، إنَّهم مجموعة من الصَّعاليك، يعملون في النَّهار هنا في السَّاحة وتجدهم عند (أبو إلياس) ليلاً، أو عند أم فيصل، قاطعه حسينوه مرة أخرى

ـ وهذه مَن تكون، إن شاء الله؟

ـ لا تستعجل على رزقك، ستعرفها في ما بعد.

وهذه المجموعة التي تلبس اللباس المدني على اليسار هناك ومعظمهم يعتمرون القبعات العصرية، وهم كما ترى شباب تركوا الدِّراسة أو يواصلون دراستهم بالانتساب للجامعات، فهم مجموعة (جهنَّم). هبَّ حسينوه واقفا، قال لمحدِّثه:

ـ وهل صرتم ترسلون النَّاس إلى الجنَّة والنَّار؟

ـ معاذ الله يا أخي هذه التَّسمية أطلقها الشَّيخ جمعة.

ـ ومن هو هذا الشَّيخ الذي تقول عنه؟

ـ ذلك الرجل صاحب اللحية المسترسلة على الكرسي الصَّغير أمام المقهى، وهو رجل طيب محبٌّ للخير، ولكنه قليل الحظِّ، غادر البلد متوجِّها للخليج وبقي سنوات عديدة، ولكنه لم يَعُدْ إلا بتلك اللحية والثوب القصير، بينما عاد غيره بالمال والسَّيارات. وكثيراً ما يجلس وحيداً، فإذا حان وقت الصَّلاة هبَّ كالملدوغ منادياً علينا:

قوموا إلى الصَّلاة، صلُّوا قبل أنْ يُصلَّى عليكم، وعندما نجامله بمرافقته للمسجد يذهب بنا إلى المسجد البعيد، وهو يقول:

Twitter: @alqareah

لا نصلِّي في المسجد الكبير ـ وهو قريب جدا من السَّاحة ـ فإمَامه فيه نظر، والله ما أعرف ماذا يقصد بذلك! ولكنني لا أكرهه، وأحيانا كثيرة أُشفِق عليه من التَّعب والإرهاق الذي نعانيه، فنحن ما زلنا نحتمل التّعب والشَّقاء، أما هو فرجل كبير ولكن ما باليد حيلة!

عندها قال حسينوه بصوت لا يخلو من المكر:

أراك تحدَّثت عن الجميع، إلا ذلك الرجل الذي يلبس بنطالاً نظيفاً وقميصاً شبه جديد فقد تجاوزته ولم تُلْحقه مع أيَّة جماعة فلا هو (زكرتيٌّ) ولا هو من أهل جهنَّم، وأنا متأكِّد أنَّه ليس من جماعة الشيخ جمعة، ضحك منيف، وأجاب بالمكر نفسه:

هذا ابن حكومة، فعلَّق حسينوه بتغابٍ واضح، وماذا تفعل الحكومة هنا؟

ـ تطمئِنُّ على سلامتك يا ابن العم!

ـ لا تضيعني، ألله يخلِّيك لم تشرح لي لماذا هؤلاء استحقوا هذا الاسم؟

ـ الاسم يا صاحبي أطلقه عليهم الشَّيخ لأنهم يتحدَّثون في السِّياسة وحقوق العمال ويسمُّونهم (البروليتاريا) ويقولون كلاماً عن الإيمان والكفر، ويحرِّضوننا ضد المقاولين أو المتعهدين، وفي نقابة العمَّال دوما لهم صوت مسموع.

ـ يكفي، ألله يبعدنا عنهم، يكفينا ما نحن فيه. قطع حديثهم وصول المقاول ونظراً لحاجته إلى عدد كبير من العمَّال صعد إلى الحوض الخلفي لسيارة (البيك آب) عدد من الزكرتية ومنيف

Twitter: @alqareah

بينما ترددَّ حسينوه في الصُّعود فجذبه صاحبه من ثوبه، وتكوَّم الجميع كتلة بشرية لكن مع برودة الجوِّ لا يبدو الأمر مزعجاً. بدأ العمل وعلا غناؤهم في طوابق العمارة السَّكنية التي بدأت ترتفع، بينما انصرف المُعلِّم ـ كما يسمَّى المقاول ـ ليحضّر الفطور من مطاعم الحمّص القريبة، لاحظ حسينوه أن أحد العمَّال يدخل أكياساً من الإسمنت في غرفة جانبية، ويغطِّيها بالأكياس الفارغة والنَّايلون، وسمع منيفاً يقول: بدأت الحفلة. حاول الاستيضاح لكنَّه تجاهله عدة مرَّات، فتبعه إلى الطابق الأرضي، وألحَّ عليه بالسُّؤال، فأخبره أن هذه الأكياس هي الضَّريبة التي يقتطعها الزّكرت من المقاول،وسيعودون لأخذها في الوقت المناسب، فاحتجَّ حسينوه بأنَّ هذه سرقة، ضرب منيف رجله بالأرض غاضباً، وطلب منه عدم التَّدخُّل فيما لا يعنيه إذا كان يريد أن يأكل خبزاً، وأنَّ باستطاعته رفض نصيبه من هذه الضَّريبة لاحقاً، وكالَ عدداً من الشَّتائم منها ما يقال ومنها مالا يقال للمتعهدين ووصفهم باللصوصية وقلَّة الوجدان، رغم اعتراض حسينوه على وضع النَّاس كلِّهم في سلَّة واحدة. وأعاد منيفٌ كلامه والتَّأكيد على أنَّهم كلهم عرصات، انسحب حسينوه من النِّقاش وعاد للعمل، وقبل أن يحمل صفيحة الرّمل أراد أن يرطِّب الأجواء من جديد، فذكَّر صاحبه، بقوله:

ـ لا تنسَ أن تعرِّفني بأم فيصل (أخو هدلة)! ضحك منيفٌ كثيراً، وجدَّد وعده، مطمئناً إيَّاه بأنَّه لا يخلف وعداً قطعه على نفسه، ثم إنَّ العمل في هذه العمارة سيستمرُّ مدَّة طويلة وهكذا لن

Twitter: @alqareah

يحتاجا للسَّاحة خلال هذه المدَّة، أسابيع من العمل مع الزكرتية مرَّت بسرعة، فالعمل معهم مبهج رغم التَّعب والبرد، فقد عادت الابتسامة إلى ثغره بعد طول غياب. إنَّهم يواجهون الإرهاق بالضَّحك، والموت اليومي بالنُّكتة المنفلتة من كلِّ قيد، يأكلون جماعة، ويتحركون جماعة، علب السَّجائر تبقى على الأرض، لا أحد يعرف هذه لمن أو تلك مَنْ صاحبها؟ إذا أرادوا شراء السُّكر والشَّاي يمدُّ أحدهم يده إلى أيِّ جيب فيأخذ حاجته، وينصرف.

مرَّت أيام العمل في عمارة عطا وهو المقاول أو المعلِّم كما يناديه الجميع سريعة، والبعد عن السَّاحة يهدِّئ أعصاب حسينوه، لذا تسلَّم أجرته وهو يضحك ويقول لمنيف:

ـ الحمد لله، أنا ثري لمدة يوم واحد.

ـ المعنى؟

ـ فهمكم كفاية!

خرج الاثنان من مكتب المقاول وهما يعيدان محفظتيهما إلى جيبيهما، ويتأكَّدان من ذلك أكثر من مرَّة، فمال منيفٌ إلى صاحبه وهمس: اليوم أنت مدعو لسهرة خاصة، وأظنني سأفي بوعدي.

قرع منيفٌ الجرس بطريقة خاصة، مرة طويلة، وتليها اثنتان سريعتان قصيرتان. فُتح الباب عن امرأة لا يمكن معرفة عمرها بسهولة ولكنها لا تخلو من مسحة جمال، ولج الرجلان المدخل بطريقة مواربة، أغلق حسينوه الباب، بينما انشغل صاحبه باللمس

Twitter: @alqareah

واللثم، انزلقت من بين يديه كقطة برية، وقالت: ما عرَّفتنا؟

أخبرها عن صاحبه، وأنه خبير! ضحكت ضحكة ماكرة، وقالت وهي تغمز بعينها المغرقة بالكحل والظِّلال. وهذه المرَّة وجَّهت حديثها لحسينوه مباشرة، هذان الشاربان صورة فقط، أم قول وفعل؟ فاكتفى بقوله: جرِّبي.

خرجت بعدها ممسكة بيده، وهي تقول لمنيف:

صاحبك ذئب برّي يشعل ما حوله دفئاً وحيوية، لكنَّه يرفض الحضارة والأسِرَّة ويصرُّ على أن يبقى ملتصقاً بالأرض، لقد سحق عظامي، ومع ذلك فهذه المرَّة على حسابي، وأرجو أن تبقيا إلى وقت العشاء، كان منيف يكتم ضحكته، وهو يستمع إلى إطراء أم فيصل لحسينوه، بينما كانت تستعدُّ للخروج إلى الصَّالون الكبير المجاور للغرفة التي يجلسان فيها، فاستغلَّ حسينوه الفرصة مطالباً صاحبه ببعض التوضيحات حول هذه النَّمرة الجميلة، فقال منيف: هذه أم فيصل سكنت في هذا البيت الكبير منذ أن جاءت إلى هذه المدينة، خدماتها متعددة المستويات، من العمال مثلنا إلى الرؤوس الكبيرة، الكلُّ يحتاجها، تُفتح لها الأبواب المغلقة، وتحصل على التواقيع الجميلة بأسهل ممَّا تتصور، ولكنها وفيَّة لأصدقائها، وصريحة أكثر مما يجب، ألا تلاحظ أنَّها لم تُخفِ إعجابها بك؟ ضحك حسينوه وعلَّق على ما سمعه من صديقه: ولكنَّ الحظ قليل!

عاد حسينوه إلى بيته متأخّراً، وبينما نجمة كانت ساهرة منتظرة، دخل بهدوء حتى لا يحدث جلبة، فبادرته: هات البشارة!

Twitter: @alqareah

فمدَّ يده بما بقي من أجرة الشُّغل، دون أن يسأل عن السَّبب، فقالت له مستغربة: ألا تريد أن تعرف سبب البشارة؟ استدرك: أكيد، أكيد، اكتفت بالنظر إلى بطنها، فقفز إلى الأعلى كطفل، ثمَّ أطرق إلى الأرض وهو يعضُّ على شفته، زاد استغرابها، ومع هذا فقد سبقته إلى غرفة النَّوم.

في موسم الأمطار على قلّتها في هذه النَّاحية من البلاد يصبح العمل نادراً، إلا من الترميمات أو الإصلاحات هنا أو هناك، ومع هذا فالسَّاحة لا تخلو من أهلها، وهذا الصَّباح رغم الجفاف والصَّقيع كان حسينوه ومنيف محظوظين فقد توقفت سيارة شاب طويل الشَّعر، أمامهما مباشرة فقفزا إلى الكرسي الخلفي، قال لهما بابتسامة: أحتاج إلى رجل ثالث، عندي رمل وحجارة أريد أن ترفع إلى سطح (الفيلّا) لنبدأ بعدها البناء، همَّ منيف بالنزول بعد أنْ فتح باب السَّيارة، لكنه تراجع لأن الباب الأمامي فتح ليجلس الشَّيخ جمعة، بعد أن قال: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ساد الصَّمت برهة قبل أن يردَّ سلامه راكبو السَّيَّارة بمن فيهم الشَّاب الذي قطَّب حاجبيه وهو ينظر إلى لحيته، فقطع حسينوه الصَّمت قائلاً: توكَّلنا على الله، الشَّيخ نشيط ولا تغترَّ بالمظاهر، بعده شباب، ابتسم الشَّاب وانطلق إلى حيَّ جديد معظمه من الفيلّات الفاخرة، وعندما ترجَّل الجميع من السَّيارة، أطلق حسينوه ضحكة مكتومة بعد أن ابتعد الشَّاب عنهم ليفتح بوابة المنزل، وقال: نحن ضيوف اليوم على حارة (الأكابر)، فوضع منيف يده على فم حسينوه وهو يحذِّره من سماع الشَّاب له، لكنّه تمادى أكثر موضِّحاً

Twitter: @alqareah

أنَّ التَّسمية ليست من اختراعاته، بل أطلقها النَّاس على هذا الحي الذي يقطنه بعض الأثرياء الجدد، قاطعه الشَّيخ جمعة:

الرزق من عند الله، يوسعه على بعض النَّاس، ويقدره على آخرين، فلاذ حسينوه بالصَّمت، وبدأ برفع أكياس الإسمنت إلى السَّطح، وكان الشَّيخ يجاريه في العمل. بعد مرور بعض الوقت لاحظ عليه الإجهاد وأنَّه يتصبَّب عرقاً، وكأنَّه تائه النَّظرات، فطلب منه البقاء على السَّطح وعدم متابعة النُّزول والصُّعود على الدَّرج، لكنه رفض وهمَّ بحمل كيس آخر لكنَّه سقط مغشياً عليه، حمله حسينوه على ظهره بمساعدة الآخرين. في المستشفى عاينه طبيبُ الإسعاف، وأمر بنقله على الفور إلى أقسام التَّنويم، ليخرج طبيب آخر ويسأل منيفاً وحسينوه إنْ كانا من أهل المريض، فيسألانه عن حاله؛ ليجيب على الفور بأنه يحتاج لنقل دم من متبرعين، يتقدَّم منيف وهو يقول: أنا جاهز ولا ينتظر الموافقة بل يمدُّ يده وهو يحاول كشف ساعده وتأخير ثوبه إلى الخلف، يسأله الطبيب:

ـ هل لديك أمراض دم أو وراثة سابقة؟

ـ والله يا دكتور أخبرني أحد الأطباء أنّ لديَّ(المنجلية) ولا أعرف ماذا يقصد! وكثير من جماعتنا لديهم المرض نفسه، ويعيشون حياتهم كما يريدون.

ـ وأنت (مشيراً إلى حسينوه)!

ـ حصان يا دكتور، حصان، لا أشكو من شيء إلا الفقر، فيبتسم

Twitter: @alqareah

الطبيب ابتسامة خفيفة، ليضيف: هذه لا تُعْدي، المهم أن تتوافق زمرتا الدم.

احتجَّ منيفٌ على تجاهل الطَّبيب له قائلاً: أنا لا أشكو من أي عرض يا دكتور!

أسرع حسينوه برفقة الطَّبيب إلى قسم نقل الدَّم، ليعود بعد قليل وما زال ساعده مكشوفاً، يرقد الشيخ أياماً في المستشفى، يعود بعدها إلى العمل، ولكنه أصبح يبحث عن الأعمال الخفيفة، وكلما مرَّ أمام طوابير العمَّال، يهمس منيفٌ في أذن حسينوه إنَّ دمك يجري الآن في عروق الشَّيخ، لذا يخشى عليه من اختلاط دمه النَّقي بدمك يا (أبا فيصل)! يضحك حسينوه بقهقهة ونشوة عارمة، ويقول:

باركوا لي الاسم الجديد (أبو فيصل)!

يُطْرِقُ وكأنه يغيب عن هذا العالم

عالم متداخل متشابك يا حسينوه، شرنقة تُنْسَج حولك وأنت داخلها، بينما تظن أنَّك تعيش خارجها، هذا دمك يجري في عروق شيخ لا يقطع فرضاً، وأنت تحمل إرثاً من القهر بدايته هنالك في أعماق البحيرة التي أغرقت عالمك وطاحونتك، ولم يبقَ لك إلا طاحونة الذِّكريات. بقي لك أبو إلياس وأم فيصل، بينما غرقت بيروت والفدائيون وبرج حمود في ذاكرتك، ربما تفكر اللحظة في أنك ما تزال مرفوعاً على (الفلقة) وترتفع العصا وتنخفض على قدميك الخشنتين، قد لا يكون الضَّرب مؤلماً يا حسينوه! لكن عورتك ما تزال مكشوفة يراها الآخرون، رغم أنَّك اعتدت لبس السَّراويل منذ أن استوطنت أرض هذه المدينة، ترى ما فائدة سراويل لا تستر عورة؟

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

3

رافد صغير لكنَّه من الدَّم!

السَّائق الذي أحضر منيفاً وحسينوه وقد أصبحا ثنائياً يندر أن ترى أحدهما منفرداً، كان متجهِّم الوجه كثير الأوامر وكثيراً ما يلوِّح بمفتاح المرسيدس بين أصابعه، حتى إنَّ منيفاً سأل رفيقه عن سبب عصبيَّته، فقال له: سوَّاق الأمير أمير، فلم يكترث بما أخبره به ولو رمزاً، بل ربما لم يفهم المقصود، واستمر ينظف العشب من حديقة القصر الجميل الذي أحضره هذا السَّائق إليه، بينما يقوم حسينوه بقطع شجرة كبيرة تتوسط ساحته جفَّت أوراقها وذبلت، وربَّما أصيبت بمرض لم يجدوا لها منه علاجاً ناجعاً، فلم يبقَ إلا القطع على يدي حسينوه. وهو منهمك في مهمته، شعر باضطراب الحركة في المكان، فلم يعد يسمع تعليمات السَّائق، رفع ظهره فرأى سيارة

Twitter: @alqareah

سوداء تجتاز بوَّابة القصر بعد أن هرع إليها عدد من الحرَّاس بلباس مدنيٍّ، استمر في عمله فكلُّ ما يعنيه أن يحصل على أجره دون مماطلة، وما عدا ذلك عوَّد نفسه ألا يسأل عنه. هدأت الحركة، ثمَّ أقبل السَّائق ليقول لهما:

أرجو أن تنجزا العمل في جزِّ العشب وزراعة هذه الشتلات، ولا تنسيا حمل الحطب ـ وهو يقصد الشجرة الآيلة للقطع ـ إلى خارج القصر، قبل أن ينزل المعلِّم، لأنَّ من عادته متابعة أمور الحديقة بنفسه، فهو يحبُّ الأشجار وكلَّ ما له علاقة بالزِّراعة، وأحياناً يعمل فيها أكثر من العمَّال. قطع حديثه شاب يحمل صينية يتوسطها إبريق الشَّاي وثلاثة أكواب، نظر السَّائق إلى الصينية، ثمَّ إلى الشَّاب نظرة استغراب، فاقترب منه وكادت الصِّينية أن تنزلق من يده وهمس له بكلمة، سكت السَّائق وتنحَّى جانباً وكأنَّه ينتظر أحداً ما، فُتح باب جانبي خرج منه رجل طويل يضع نظارة، يلبس ثوباً فضفاضاً، سأل قبل أن يصل عن أخبار العمل في الحديقة، لكنَّه استدرك سريعاً، فألقى التَّحية على الجميع، سقط صوته صاعقة في أذني حسينوه، توقف عن العمل بعد أن جمدت أصابعه حول المنشار الحديدي، وتسمَّر في مكانه، واندفع إلى ذلك الرُّجل، هبَّ السَّائق ليدفعه إلى الخلف أو يفعل شيئاً ما، لكن المعلِّم نهره، وعانق حسينوه مطوَّلا، ساد الذُّهول لحظة، حتى قال ساكن القصر: أسنبقى هكذا دون أن نشرب الشَّاي؟

لم يستفق منيفٌ من الصَّدمة حتى أخبره حسينوه بأنَّ هذا هو الأستاذ أحمد ابن قريته وزميله في المدرسة، ثم جلس على الأرض ليشرب الشَّاي وهو مطمئن إلى صمت السَّائق وانشغاله بجلب

Twitter: @alqareah

الكراسي، بل ربَّما شمت به على هذه المهمَّة أيضاً، لكن الذي لم يفهمه حسينوه وربَّما لن يفهمه سؤال أحمد أو الرفيق أبو نضال ـ كما كان السَّائق يخاطبه – عن حادثة المساعد سعدو وهل سأله أحد من الحكومة عن هذه القصة بعد عودته من بيروت؟

واكتمل اللغز بقوله وهو يمسك بكتفه: اضبط أعصابك في المرَّة القادمة، فالجرَّة لا تسلم في كلِّ مرَّة، قالها وهو يشير إلى الجرح الذي يتوسط جبينه، بقي حسينوه أياماً بعدها يحاول استيعاب ما حدث، بينما انشغل منيفٌ بالسَّبب الذي يجعل صديقه يكتم عنه خبر معرفته برجل له كلُّ هذه الأهمية، وليت الأمرَ مقتصرٌ على المعرفة، ولكنَّها صلة قربى أيضاً!

كما كانت آمال زوجته نجمة عريضة على هذه الصدفة الجميلة، إذ يمكنه أن يفعل الكثير لهم، لولا ذلك الرَّجل الغامض الذي استمرَّ يسألها يومياً بعد خروج حسينوه من المنزل عن المكان الذي يجد فيه زوجها، وهي تجيبه من خلف الباب أنَّها لا تعرف، وتنظر من الثُّقوب لعلَّها تتعرف إليه، أو تحدِّد ملامحه، لكنه لم يكن ممَّن تعرفهم من الأقارب أو الأصدقاء، وكلَّما أخبرت حسينوه عن الأمر يصرُّ على عدم فتح الباب وعدم إعطاء معلومات عن مكان العمل، ولكن الأمر الذي لا يسكت عنه هو إصرار حسينوه على لبس البنطال وإطالة لحيته، وهذا ما لم يفعله حتى أيام بيروت، ممَّا دفعها للإلحاح على معرفة ما يجري، فأخبرها بأنَّ أبناء عمومته الذين رُحِّلوا إلى رأس العين، ووطِّنوا هناك تشاجروا مع جماعة، وقاموا بقتل شاب منهم، لم تستوعب الأمر، فقالت: وما علاقتنا

Twitter: @alqareah

بهذا؟ نحن لم نقتل أحداً، فأشعل سيجارة ربَّما تكون العاشرة، وعلَّق على حديثها بقوله: من يسمع حديثك يظنُّ أنَّك روسية مثل صديقة أخيك!

استفزَّها ردُّه، فاستعدَّت للدفاع عن أخيها المهندس صالح وصديقته ميرنا، لكنه استدرك بلهجة مشفقة:

ـ العادات هي العادات لا تتغير، حتى لو غيرنا جلودنا، فكلُّنا مطلوبون للثأر حتى الأستاذ أحمد غير مستثنى منه، لكنَّهم ربما لا يستطيعون الوصول إليه، كما أنَّهم عاجزون عن الوصول لمن في السِّجن ممن ارتكبوا الجريمة وهم الجناة الحقيقيون، أما نحن فمكشوفون، يا نجمة، مكشوفون.

ـ سنترك هذا البيت، ونستأجر بيتاً آخر

ـ بالتأكيد، ومع هذا سنظلُّ مطاردين نحمل خوفنا معنا إلى كلِّ مكان.

أصبح حسينوه لا يمرُّ بالسَّاحة مطلقاً، بل يكتفي بجلوس منيفٍ هناك، وعندما يأتي من يطلب العمل يحضره في كلِّ مرة إلى مكان مختلف متفقٍ عليه، وكان لا يملُّ من تكرار تأكيده على ثباته في الدِّفاع عن حسينوه ولو كلَّفه ذلك روحه، فتغرورق عينا ه بالدُّموع ويقول: قَدْها (أخو هدلة)، والله لا أخاف الموت ولكنني لا أريد للطفل الذي تحمله نجمة أن يعيش يتيماً مثلي، فمن تعضُّه الحيَّة يخفْ من الحَبْلِ!

Twitter: @alqareah

طريد أنت يا حسينوه، تحمل خوفك عقالاً على رأسك لا يبارحك، مطارد في طفولتك باليتم والفلقة، ومطارد في شبابك بالجوع، ترى خلف كلِّ سور فوهة بندقية مصوَّبة إلى صدرك، وتحت كلِّ لثام عيناً حادة تراقبك، تتحول المدينة إلى سكين يخترق القلب في كلِّ صباح، استطاع السدُّ أن يضيء بلاداً بعيدة وفي الاتجاهات كافة، ولكنَّ البقعة الوحيدة التي بقيت معتمة هي أنت، وصل ماؤه إلى أطراف حلب، وبقيت ظمآن وأنت على مرمى حجر منه، أمقدَّر لك أن تدفع الثَّمن مرتين؟

ها أنت طريد دون أن ترتكب جرماً، إنَّها دورة محكمة من القهر، وأنت كوكب يدور في هذا المدار منذ الأزل ولا يستطيع كسر هذا النَّاموس، لقد مُنِحْتَ فترة إضافية للحياة حتى ظننت أنَّ الغيوم قد انقشعت،فانفرجت الأرض عن وجه قبيح يسدُّ عليك الطَّريق، فكَّرتَ في الهرب، لكنَّه العار، قلت له:

اسمع، لا أخافُكَ، ولست راغباً في قتلك، ونظرتَ في عينيه مباشرة، لتقول له ولآخر مرة في حياتك:

لستُ من تبحث عنه، قاتل أخيك في السِّجن وهذا كافٍ، لكنَّه كان صخرة لا تسمع ولا تعي ما تحدِّثه به، رصاصة واحدة وضعت حدًّا لدورة الموت والقهر، لم تنفع سيَّارات الحكومة التي أمرها الأستاذ أحمد، ولا الأطباء على كثرتهم، كان دمك يسيل من بوَّابة (القشْلة) إلى نهر الفرات ليشكِّل رافداً ثالثاً له، لكن ثَمَّة فرقاً كبيراً

Twitter: @alqareah

بينه وبين الرَّافدين الآخرين ـ البليخ والخابور ـ[1] إنَّهما يجفَّان شهوراً طويلة كلَّ عام قبل أن يعاودا الجريان، بينما هذا الرَّافد دائم الجريان لا ينقطع، ولا يعرف الجفاف طريقه إليه.

(1) البليخ والخابور: رافدان من روافد الفرات في الأراضي السورية.

Twitter: @alqareah

4

ما يشبه البداية

حسين الصَّغير يملأ شقَّة خاله في (الطبقة) صُراخاً رغم اتِّساعها، وفي الوقت الذي تقوم جدَّته بتحضير زجاجة الحليب له،وهي مصرَّة على مناداته حبيبي حسينوه، فيستجيب لندائها بضحكة عالية ولثغة يفهمها القلب، رافعاً يديه لها كيمامة تهمُّ بالطيران فوق ماء البحيرة الصَّافي، كانت نجمة تتسمَّر أمام النَّافذة المشرعة على هذا الامتداد العذب، تسرِّح نظرها في البعيد. أسراب العصافير تحوِّم على رؤوس الأشجار التي شمخت للأعالي فشكَّلت غابة صغيرة على كتف النَّهر، بينما أدار المهندس صالح شريط التسجيل، ربما للمرَّة الألف، بعد أن رتَّب أوراقاً كثيرة كانت أمامه، ليأتيَه الصَّوت نديًّا، وكأنَّه يستمع إليه لأول مرَّة، يستمع إليه

Twitter: @alqareah

وهو يتحسَّس فمه ليجده على هيئة الجرح، ويستمع بقلبه قبل أذنيه، فزمنه قد تسمَّر عند لحظة لا يبارحها، وعقارب ساعته تجمَّدت عند تلك اللحظة التي غابت فيها ميرنا عن بصره، ولم يبقَ إلا ذلك الصَّوت المنسلُّ من بلاد الصَّقيع دافئاً كشمس نيسان على صفحة الفرات، وقد انعكست عليها وجوه من عرفهم جميعاً، مثل أيقونات جميلة معلَّقة على جدار كنيسة، كان يصغي بكلِّيَّته، بينما يقلِّب بين أصابعه جواز سفره الجديد، وألحان تشايكوفسكي تتداخل مع كلماتها:

«كانت تنتفض كعصفور باغته الشِّتاء، عيناها غائمتان، ورائحة التراب البكر تمتزج بحِنَّاء ذوائبها، كان يفشل في كلِّ مرَّة يحاول فيها رسم الحدود بين الحنطة في وجهها وحقول القمح في تلك القرية التي نسيتها الخرائط.

قالت له:

غداً ستحمل ذاكرتك المسكونة بالخوف وستخرج بلا وداع، متلفِّعاً بالصَّقيع، تخبُّ في دروب مسيَّجة بالحَرْمَل وشجيراتٍ لا رائحة لها.

ها أنت ذا ـ كما قالت لك ـ طريد في مدن لا تذكر أسماءها ولا تعرفك، تعيش في كهوف الحزن وأقبية الخيبة، تهرب من وهج الشمس مجترًّا آلامك.. تراها في كل الأشياء.

مع أيَّة غيمة شتائيَّة ستأتيك؟

لا تعرف!

Twitter: @alqareah

وأيَّة ريح ستطوِّح بها بين يديك؟

لا تعرف!

كلُّ ما تعرفه أنَّك قطعت كلَّ الجذور عندما قررت أن تحيا بلا ذاكرة، ونسيت أنَّها قالت لك في الوداع الأخير:

إنَّ من يحرق سفن الذَّاكرة لن يعرف طريق العودة... وهكذا كان.. تركتَها تغسل قدميها بماء الفرات وتحتضن سعف النخلة الأخيرة، ولم تعد تفرِّق بين رائحة الهيل وضباب المدن... لا تباعد بين أصابعك فأنت تقبض على حفنة التراب الأخيرة...»

الرياض 2009م

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

الإهداء	5
الكتاب الأول: الزَّهاب	11
1 ـ صندوق العروس	21
2 ـ خواجة موريس	25
3 ـ حويجة الشحرورة	33
4 ـ وَلْـدة	41
5 ـ البَـرْك	47
6 ـ عَـرودَة	53
7 ـ أمُّ الواجِعَات	59
8 ـ التَّحَدِّي	67
9 ـ تَمرُّدٌ في القارة السَّابعة	71
10 ـ اللجنة [1]	77

Twitter: @alqareah

11 ـ اللَّجنة [2] 81

12 ـ مِيـرْنَا 85

13 ـ الخال آرمين 93

14 ـ الأموات يُدْفَنُون مرَّتين 101

15 ـ بُـرج حَمُّود 107

16 ـ الرَّحِيل 117

17 ـ كانَ فَمِي جُرْحَاً 123

الكتاب الثاني : الرُّمَيـلَة 127

1 ـ الرُّميلة 129

2 ـ القَشْلَة 137

3 ـ رافد صغير لكنَّه من الدَّم! 147

4 ـ ما يشبه البداية 153

Twitter: @alqareah

«أهل الأرض منشغلون عنها بلهاثهم الذي لا ينتهي خلف الرغيف أو الحب أو الهروب من الموت.

هجرهم الفرح، وغابت شمسهم خلف تلك الجبال، مَسكَنة غربا، رغم أن النهر ما زال يتدفق متجها إلى الشرق».

Twitter: @alqareah

الدكتور موسى رحوم عباس
كاتب سوري مقيم في الخارج.
دكتوراه علم النفس السريري (العيادي).

صدر له:

1- الآفلون، ديوان شعر، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت 2010م.

2- الوسواس القهري، ماهيته، أسبابه، علاجه (تحت الطبع).

البريد الإلكتروني:
mousa_abbas@yahoo.com

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

كانت تنتفض كعصفور باغته الشّتاء، عيناها غائمتان ورائحة التُّراب البكر تمتزج بحِنَّاء ذوائبها، كان يفشل في كل مرَّة يحاول فيها رسم الحدود بين الحنْطَة في وجهها وحقول القمح في تلك القرية التي نسيتها الخرائط.

@ketab_n
Follow Me

قالت له: غدا ستحمل ذاكرتك المسكونة بالخوف وستخرج بلا وداع، متلفعًا بالصَّقيع، تَخُبُّ في دروب مسيَّجة بالحَرْمَل وشُجَيراتٍ لا رائحة لها.

ها أنت ذا - كما قالت لك - طريد في مدن لا تذكر أسماءها ولا تعرفك، تعيش في كهوف الحزن وأقبية الخيبة، تهرب من وهج الشَّمس مجترًّا آلامك.. تراها في كل الأشياء مع أية غيمة شتائيَّة ستأتيك؟ لا تعرف.

وأية ريح ستطوِّح بها بين يديك؟ لا تعرف، كل ما تعرفه أنَّك قطعت كلَّ الجذور عندما قررت أن تحيا بلا ذاكرة، ونسيت أنَّها قالت لك في الوداع الأخير:

إن مَن يحرِق سفن الذاكرة لن يعرف طريق العودة... وهكذا كان.. تركتَها تغسل قدميها بماء الفرات وتحتضن سعف النَّخلة الأخيرة، ولم تعد تفرِّق بين رائحة الهيل وضباب المدن... لا تباعد بين أصابعك فأنت تقبض على حفنة التُّراب الأخير...

ISBN 978-9953-468-59-4
9 789953 468594
بيسان